بسم الله الرحمن الرحيم

أصول العمل الجماعي

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهـره على الـدين كله وكفى بالله شـهيداً، والصـلاة والسـلام على عبـده ورسـوله محمد خـاتم النبيين والمرسـلين الـداعي إليه على بصـيرة هـدى المقيم لخـير أخـرجت للناس ديناً ومنهجاً تدعو إلى الله وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

والحمد لله على أنه أقام طائفة من هذه الأمة على الحق ظاهرين مقاتلين لأعداء الله مجاهـدين في سـبيله لا يخـافون في الله لومة لائم حـتى يقاتل آخـــرهم الـــدجال. ونســـأل الله أن يجعلنا من هـــذه الطائفة الظـــافرة المنصورة.

وبعد:

فقد بينا في كتـاب (مشـروعية الجهـاد الجمـاعي) بحـول الله وقوته الأدلة الواقعية الكافية على مشروعية العمل الجماعي الذي يراد من ورائه قضاء فريضة كفائية كالقتـال في سـبيل اللـه، أو الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر، أو تعليم العلم ونشر الإسلام، أو بناء مؤسسات الدين من مسـاجد ومدارس.

وذكرنا من مـبررات هـذا العمل ما يجعل على كل مسـلم متبصر وجـوب الانخراط فيه حيث استبيحت حرمات المسـلمين، وضـيعنا أحكـام القـرآن، ونشـأت أجيـال من أبنـاء الإسـلام على غـير الملـة، وغزانا العـدو في عقر ديارنا واستباح نساءنا وأطفالنا ومقدساتنا.. فأصـبح لزامـاً على المسـلمين التنادي لصد عدوان أهل الكفر على ملة الإسـلام وإلا كـانوا جميعـاً آثمين.. ولما كـان صد هجـوم الكفـار هـذا على أمة الإسـلام لا يمكن إلا بالتعـاون والتضافر والتآزر والجماعة، فإن الجماعة من أجل ذلك أصـبحت واجبة من باب (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب).

وذكرنا أيضاً أن بعضاً من أهل الغيرة على الإسـلام قد أسسـوا الجماعـات الدعوية، والمؤسسات الخيرية من أجل القيـام بهـذا الأمـر، وأن بعضـاً من هذه الجماعـات والمؤسسـات قد عم خيرها ونفعهـا، وبعضـاً خلطـوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يعفوا عنهم إنه غفور رحيم.

وقد عجبت أشد العجب لمن أفـتى بعـدم جـواز قيـام جماعـات للجهـاد والـدعوة، ومؤسسـات للخـير والـبر والإحسـان زاعمين أن ذلك ليس من هـدي سـيد المرسـلين، ولا أحد من سـلف الأمة الطيـبين الطـاهرين، ولا العلماء العاملين، وأنه لا يجوز هذا مع قيام أي سلطان إسلامي، وادعوا أن هذا فرقة والفرقة عذاب وتتبعوا سيئات بعض الجماعات الدعوية ونشروها في كل مكـان وقـالوا: انظـروا هـذه هي سـيئات التجمع للـدعوة إلى الله ونصر الدين.

وقد رددنا بحمد الله على كل هـذه الشـبهات بما عراهـا، وكـان من جملة ردنا أنه لم يأت في كتاب ولا سـنة ولا قـول لأي من سـلف الأمة ينهى فيه أن تتجمع جماعة من المسلمين على فعل خير وبر وتقوى، فكيف تؤصلون أصلاً لا سند له من كتاب ولا سنة ولا قول سلف صالح من هـذه الأمـة، بل الكتـاب والسـنة والإجمـاع كلهم داعـون إلى التعـاون على الـبر والتقـوى، والتآزر، والجهاد الجماعي من أجل رفعة الـدين، وجعل كلمة الله هي العليا في الأرض كلها، ودحر الباطل وأهله في كل مكان.

وقلنا أيضاً إن سـلفنا جميعـاً لم يعرفـوا إلا الجهـاد الجمـاعي إما في إطـار الإمام الـذي كـان كل مسـلم يعتـبر نفسه جنـدياً عنـده، منتظـراً الأمر منه للخروج والجهاد، وإما عاملاً في الجماعة الخاصة وذلك عن غيبة الإمــام أو ضعفه عن القيام بواجبه.

وضـربنا مثلاً لـذلك: بشـيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله وكيف جاهد في إطار جماعة منظمة عاملة تأتمر بأمره وتجاهد بمشــورته، وكيف وقى الله بجهاده أمة الإسـلام كثـيراً من الأخطـار الـتي كـانت تتهـددها.. (وقد جمعنا مجموعة المقالات عن شـيخ الإسـلام ابن تيمية في كتـاب مسـتقل "شـيخ الإسلام ابن تيمية والعمل الجماعي").

شـيخ الإسـلام محمد بن عبـدالوهاب إمـام السـلفية المعاصـرة والعمل الجماعي.

وأما المثال الآخر فهو شيخ الإسلام وإمام السلفية المعاصرة قاطبة الإمام محمد بن عبـدالوهاب "الـذي أسس جماعة عاملة للـدعوة إلى اللـه، ولم ينتظر إذن خليفة المسلمين في الأستانة آنذاك ولا نائبه الشريف بمكة، ولا أمرائه المتفـــرقين في نجد والجزيـــرة، وذلك بعد أن عم الجهل وانتشر الشرك، وفشا الزنا، وتركت أحكام الإسـلام.. ولـذلك أسس شـيخ الإسـلام ابن عبدالوهاب جماعة وعهداً وبيعة، بل نظاماً سياسياً كاملاً مصغراً بـدءاً بالـدعوة إلى التوحيد ونشر الإسـلام وتعليم أحكامــه، وانتهى بالقتـال في سـبيل الله دفاعـاً عن النفس والعقيـدة وهو في كل ذلك لم يعلن خروجـاً عن الخلافـة، ولا أنه هو وحـده الجماعة الإسـلامية، وإن كـان أعـداؤه قد اتهمــوه بــذلك.. ولكنه بــريء من ذلك فما كــان إلا داعيــاً إلى الله على بصـيرة، قائمـاً بـدعوة جماعية على مقتضى الكتـاب والسـنة، تبغي عز الإسلام ونصـره، وإعلاء كلمة الله في الأرض، وقد حقق الله له مـراده فها نحن نعيش آثار بركة دعوته، وثمرة جهـاده.. ولو بقي شـيخ الإسـلام محمد بن عبدالوهاب معلماً -على نمط معلمي اليوم- وشيخاً في بلدته (حريملة) أو في (الدرعية) التي رحل إليه وقنع بأن يكون شيخاً في مسجد، ومعلمـاً في حلقة. لكان العالم الإسلامي اليوم قد عمه الخـراب والـدمار والشـرك والبوار واقرأوا جيـداً التـاريخ لتعرفـوا النقلة الهائلة الـتي نقلت فيها دعـوة شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب العالم الإسلامي من واقع جـاهلي كامل إلى واقع إسـلامي آخـر، ولم يكن ذلك يتحقق لـولا منهج الـدعوة الجماعية الـذي أسسه شـيخ الإسـلام والمسـلمين محمد بن عبـدالوهاب رحمه الله ورضي عنه.

والخلاصة أن شيخ الإسـلام محمد بن عبـدالوهاب قد أقـام مشـروعه لنصر الإسلام على العمل الجمـاعي فأسس هو والإمـام محمد بن سـعود النـواة المباركة للدعوة والجهاد الذي أثمر تطهير الجزيرة من الشـرك والخرافـة، ومن ثم إقامة شرع الله في الأرض ولم ينتظر في ذلك إذن الخلافة، الـتي كانت تبسط سلطانها على العالم الإسلامي كله من وسط أوروبا والمحيط الأطلسي غربـاً إلى حـدود إيـران شـرقاً، ومن القـرم والبحر الأسـود في أواسط آسيا شمالاً إلى بحر العرب جنوبـاً.. وينضـوي تحت لوائها أكـثر من مائتي مليون مسلم في ذلك الوقت.

وقد بدأ شيخ الإسـلام محمد بن عبـدالوهاب مشـروعه الإسـلامي في قرية واحـدة من قـرى نجد لا يقطنها أكـثر من ألف وخمسـمائة إنسـان فقـط!! وكـان كل من حـول هـذه القرية معـادين ومعارضـين لهـذا التوجه الجديـد، والمشروع الجديد بل عدُّوا ذلك خروجاً على الأمـة، وتكفـيراً للمسـلمين!! وجندوا الحملات تلو الحملات للقضاء على هذه الدعوة.

ولا شك أن أعظم مشروع انتفع به المسلمون منذ ذلك الـوقت وإلى يومنا هذا هو مشروع شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب الـذي ما زلنا نعيش في بركة دعوته إلى اليوم.

هذه مقدمة سريعة أحببت الدخول بواسطتها إلى الموضـوع الأساسي وهو الإجابة على هذا السؤال: إذا كان العمل الجمـاعي واجبا - اليـوم كما كـان بالأمس.. على أهل الإسلام نصرة لدينهم، فما هي الأصـول والقواعد الـتي يقوم عليها هذا العمل؟ وهذا أوان الشـروع في ذلك فـأقول مسـتعيناً بالله سبحانه وتعالى.

الأصل الأول: الارتباط بالحق

أول واجب على المســلم أن يرتبط بـالحق أبــداً، وأن يلتزمه مطلقــاً، وألا يصـرفه عنه صـارف. والحق في لغة العـرب هو الثـابت المسـتقر، وضـده الباطل وهو الزائل المضمحل الكاذب. والحق الذي نعنيه هنا هو المعصــوم الــذي لا يتطـرق إليه الخطأ ولا يدخله الزيـف.. وليس عنـدنا في الإســلام معصوم إلا كتاب الله، وسنة رسوله، وإجماع أهل الإسلام جميعاً على قول واحد.. هـذه هي الأصـول المعصـومة الـتي لا يتطـرق إليها خلل ولا يتصـور منها باطـل.. فـالقرآن كتـاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل العزيز الحميد، وسنة رسوله معصــومة؛ لأن الله عصم نبيه أن يتكلم عنه بغـير الحـق، وأن يبلغ عنه إلا ما يريد الله سـبحانه وتعـالى.. وإجمـاع الأمة كــذلك معصــوم بعصــمة الله ســبحانه وتعــالى؛ لأنها أمة مرحومة لا تجتمع كلها على الباطل، بل لابد وأن يكون منها ما يقـوم به الحق إلى آخر الدنيا كما قال صلى الله عليه وسلم: [لا تزال طائفة من أمــتي على الحق ظـاهرين لا يضـرهم من خـذلهم ولا من خـالفهم حـتى يـأتي أمر الله وهم كذلك]. ومعنى هـذا أن الأمة الإسـلامية إذا اجتمعت على أمر فلا يمكن أن تجتمع كلها عليه إلا أن يكــون هو الحــق، كما اجتمعــوا على أن القــرآن لم يحرف، واجتمعوا على قتال المرتدين مانعي الزكـاة، واجتمعـوا على خلافة

الصديق، وأن الصلوات خمس، وصيام رمضان حق، والجهاد ماض إلى قيام الساعة، ونحو ذلك كثير مما اجمعت عليه الأمة في كل عصورها، فمن شذ في ذلك فهو كما قال سبحانه وتعالى: {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً}.

والارتباط بالحق يوجب على كل مسلم أن يجعل كتاب الله وما صح عن رسوله، وما أجمعت عليه الأمة وخاصة في عصر الصحابة نصب عينه ولا يحيد عنه لقول قائل مهما كان هذا القائل إماماً متبعاً أو جماعة خاصة، أو هوى أو عرفاً، فكل شرط ليس في كتاب الله مما اشترطه الناس فهو باطل وإن كان مائة شرط، وكل عهد وبيعة، وأمر ونهي يخالف الحق الثابت في كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة فلا يجوز لأحد اتباعه وطاعته، كما قال الإمام الشافعي (رحمه الله): (أجمعت الأمة أنه لا يحل لأحد أن يترك سنة استبانت له لقول قائل كائناً من كان هذا القائل). فأول ما يجب على جماعة الدعوة أن يكون قيامها أولاً من أجل الله وفي سبيله وابتغاء مرضاته -وهذا له تفصيل في غير هذا الموضع- ثم أن يكون هم كل فرد فيها أن يتبع الحق، وأن يعلم أن الجماعة كلها يجب أن تكون في خدمة الحق الذي هو الإسلام وأن يكون رائد الجميع الوصول إلى الحق والالتزام به والتحري عنه.

وقد بلغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذروة في ذلك سمعاً وطاعة لله ورسوله، ورضى بما يحكم ويأمر حتى لو خالف أهواءهم وما عليه آباؤهم وعشائرهم، وبذلك تجردوا عن كل عصبية تخالف الإسلام، وعن كل عائق يحول بينهم وبين اتباع كلام الله وكلام رسوله، بل بلغ من التزامهم بالحق أن يجادلوا الرسول صلى الله عليه وسلم ويناقشوه فيما يرون أنه الحق، كما جاء في صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه مال فأعطى بعض الناس وترك رجلاً هو أعجبهم لدي، فقلت يا رسول الله: مالك عن فلان؟! والله إني لأراه مؤمناً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [أو مسلماً] وقد راجع سعد بن أبي وقاص رسول الله المرة تلو المرة في هذا الرجل الذي لم يعطه رسول الله من المال الذي جاءه حتى قال له رسول الله [أقتالاً أي سعد] ثم فسر الرسول سبب هذا وأنه يعطي بعض ضعاف الإيمان من المال ويترك الأقوى إيماناً خوفاً على ضعاف الإيمان من الكفر والردة [إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي مخافة أن يكبه الله على وجهه في النار]، والشاهد أن سعداً لم يمنعه إيمانه برسول الله وأنه معصوم قولاً وفعلاً من أن يراجعه المرة تلو المرة، وأن يستفسره في هذا الأمر لما يرى في قلبه من وجوب الشفاعة لأخيه المسلم، وأن رسول الله ربما تركه لعدم العلم بحاجته أو لسبب آخر.. والشاهد أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا من فرط ارتباطهم بالحق، وتعظيمهم له في قلوبهم كانوا يناشدون حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه وهو يؤمنون بعصمته ونزاهته وعدله.. وقد شهد لهم الرسول بهذه الفضيلة فقال في حديث الشفاعة الطويل: [فما أنتم بأشد مناشدة لي في الحق استبان لكم من مناشدة المؤمنين ربهم يومئذ يقولون: يا رب إخواننا كانوا

يصلون معنا ويصومون معنا! فيقول لهم الله سبحانه وتعـالى: اذهبـوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه] والشاهد أن الرسـول هنا يثني على الصحابة ويذكر موقفاً لأهل الإيمـان في الآخـرة وهو مناشـدتهم الله (والمناشـدة من النشـيد وهي رفع الصـوت بالـدعاء والاسـتغاثة ونحو ذلك) في إخوانهم الذين سقطوا عن الصراط. فالمؤمنون مع علمهم الأكيد بأن الرب جل وعلا هو الحكم العـدل، وهو البصـير بعبـاده، وأنه يجـازي كل إنسـان بعمله {ولا يظلم ربك أحـداً} وأنه هو الـذي حكم بـأن يسـقط عن الصراط من أهل الإيمان من يسقط، ولكن أهل الإيمان لم يمنعهم إيمانهم بذلك مكن الشفاعة لإخوانهم المؤمنين الذين سـقطوا عن الصـراط، ومن الإلحـاح على ربهم، بل ومناشـدته أن يعفـوا عنهم بـأنهم كـانوا يصـلون ويصـومون مع هـؤلاء الـذين نجـوا وعـبروا القنطـرة وجسر جهنم. والـرب الـرحيم سـبحانه وتعـالى أحب منهم هـذه المناشـدة والـدعاء فهو سـبحانه وتعالي وإن كان قد عاقب من سـقطوا عن الصـراط بما يسـتحقون إلا أنه جل وعلا يحب أن يشفع المؤمن لأخيه المـؤمن. وأن يشـعر بشـعوره ومن أجل ذلك قبل شفاعتهم، واستجاب لمناشـدته ولم يجعل هـذا منهم تـدخلاً فيما لا يعـنيهم. ولا اعتراضـاً على حكمه في عبـاده، بل قـال لهم الـرب الـرحيم الـودود: [اذهبـوا فمن وجـدتم في قلبه مثقـال دينـار من إيمـان فـأخرجوه] ولا يزالـون يراجعـون الله المـرة تلو المـرة حـتى يقـول لهم: [اذهبـوا فمن وجـدتم في قلبه مثقـال حبة خردلة من إيمـان فـأخرجوه]. ويقولون في نهاية المطاف: يا رب لم يبق إلا من حبسه القرآن.

والشاهد من كل ذلك أن أهل الإيمان من فرط تعلقهم بالحق ناقشـوا فيما يرونه من الحق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وناشـدوا فيما اعتقـدوه من الحق رب العزة سبحانه وتعالي، فـأين ذلك فيمن يقيم بينه وبين الحق حاجبـاً وحـاجزاً من إمـام متبـوع أو جماعة مطاعـة، أو رئيس محبـوب أو عصبة أو هوى يقدم قول أولئك وهواهم على كلام الله وكلام رسوله صـلى الله عليه وسلم.

والخلاصة أن الارتباط بالحق معنى شـريف جـداً يجعل صـاحبه متجـرداً له باحثاً عنه بكل سبيل فـإذا اسـتبان الحق له فهو معه أبـداً لا يحيد عنـه، ولا يتأتى ذلك إلا بتقـوى الله عز وجـل، والتبصر في أمر الـدين، وإماتة الهـوى وحظوظ النفس، والعصبية والحمية الجاهلية وهـذه أمـور تحتـاج إلى جهـاد مرير للنفس ومجاهدة بليغة في الله سبحانه وتعالى. قال جل وعلا: {يأيها الذين آمنوا كونـوا قـوامين لله شـهداء بالقسط ولا يجـرمنكم شـنئان قـوم على ألا تعـدلوا اعـدلوا هو أقـرب للتقـوى واتقـوا الله إن الله خبـير بما تعملون}.

وقال تعـالى: {يأيها الـذين آمنـوا كونـوا قـوامين بالقسط شـهداء ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين} الآية.

وقال تعالى: {يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً}.

وهذه ثلاث آيات محكمات توضح هذه القضية وخلاصـتها أن يكـون المـؤمن مراقباً لله في كل أحواله، قائماً لله أي لا يقول ولا يعمل إلا من أجله وفي سبيل مرضـاته، وعلى هـدى منه جل وعلا، وأن يكـون قائمـاً بالقسط وهو

العـــدل في جميع أقواله وأعماله وألا يحمله كراهية عــــدو على أن يظلمه مهما بلغت عداوته لهذا العدو، ولا يحمله كذلك محبته لقريب أن يشهد معه بباطل، لينفعه مهما كان هذا القريب. ومرة ثانية أقول: بلغ أصحاب رسول الله صـلى الله عليه وسـلم الـذروة من ذلك فهـذا رسـول الله يرسل أحد الصحابة إلى خيبر ليـأتي بنصف ثمرتها حسب العهد الـذي كـان بين اليهـود ورسول الله أن يكون لليهود نصف ثمارها وللمسلمين نصف ثمارها. فـأراد اليهود أن يرشوه لينقص من حق المسـلمين فقـال لهم: (اعلمـوا يا معشر يهود أنكم والله أبغض الناس إلي، وأن رسول الله أحب النـاس إلي ووالله لا يحملني بغضكم ولا حبي لرسول الله أن أظلمكم ثمرة واحدة).

فقال اليهود: "بهذا قامت السموات والأرض". أي على العدل.

فأنظر إلى فعل وقول هذا الصحابي الجليل كيف لم تحمله محبة الرســول وبغض اليهـــود أن يميل عليهم من أجلـــه. وانظر إلى أحـــوال كثـــير من المنتسبين إلى الإسلام اليوم كيف يستبيح لنفسه أن يشهد بالزور ويستحل الظلم في حق من يخالفه الرأي وهو من أهل دينه وملته، ويشــهد بالباطل حمية لمن يحبــه، وهــذا المــرض للأسف منتشر بين كثــير من منتســبي الجماعات الإسـلامية فإنه يحملهم التعصب لجماعـاتهم على المحابـاة لهـا، والشـــهادة لها بـــالزور واســـتحلال الكـــذب على الجماعـــات المنافسة أو المخالفة، ونادراً ما تجد من يشـهد بـالحق، وهـذا من الأمـور الـتي زهـدت كثيراً من الناس في الانضمام إلى جماعات الدعوة، واتخذها بعض الكتـاب دليلاً على تحـريم العمل الجمـاعي، وقد بينا مـراراً وتكـراراً أن المعصـية والظلم وعدم القيام بـالحق موجـودة في الأفـراد كما هي في الجماعـات، وكما يوجد التعصب للجماعة يوجد كــــذلك التعصب للشـــيخ والكتـــاب والمدرسة الفكرية والعقائدية والبلـــدة، والإقليم والقبيلة ألا تـــرى أنه يوجد عصبة لنجد، واليمن، والشام، ومصـر، على مستوى علمـاء الـدين، وطلبة العلم وقد تـــدفع هـــذه العصـــبية إلى غمط الآخـــرين، والشـــهادة بالباطل للمحـبين والتـابعين.. فالعصـبية كلها مذمومة لشـيخ أو وطن، أو جماعة أو حـزب، أو قبيلـة، أو مدرسـة، ولا يعـني هـذا أن نلغي الأوطـان والمشـايخ والأحزاب والمـدارس. وعلى كل مسـلم هـداه الله ووفقه أن يكـون قيامه كله في كل شؤونه لله، وشهادته لله، وارتباطه بالحق وحده المعصـوم وألا يمنعه ولا يحول بينه وبين الحق حائل من عصبية أيـاً كـانت هـذه العصـبية، ولا يعين على ذلك إلا الله وحده.

الأصل الثاني

الالتزام بجماعة المسلمين وإمامهم

ذكرنا أن الأصل الأول من أصول العمل والجهاد الجماعي هو وجوب التزام المسلم بالحق، ودورانه معه حيث دار، واسـتقامته على الجـادة والصـراط المستقيم عملاً بقوله تعالى: {يأيها الذين آمنوا كونـوا قـوامين لله شـهداء بالقسط}. وقوله تعالى أيضـاً: {يأيها الـذين آمنـوا كونـوا قـوامين بالقسط شهداء لله}. وذكرنا أن الحق المعصوم الـذي لا يجـوز لأحد المحيد عنه هو

كتاب الله، وسنة رسوله، وإجماع أمة الإسلام جميعاً على قول أو رأي أو موقف واحد فهذا ما لا يجوز لمسلم مخالفته بحال.

والآن نأتي إلى الأصل الثاني من أصول العمل الجماعي المهتدي بهدي الكتاب والسنة من السلف الصالح، وليس العمل الجماعي الذي ينحرف عن الصراط، ويعدل عن الجادة، ويهتدي بغير هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو:

الالتزام بجماعة المسلمين وإمامهم.

والجماعة إذا أطلقت في الإسلام فإنها تعني جماعة أهل الإسلام العامة ويقابلهم الكفار والمنافقون، والتزام هذه الجماعة يعني:

أ- ألا يخرج المسلم برأي أو قول يخالف به إجماع الأمة في أي عصر من عصورها وإلا كان خارجاً مشاقاً. فقد أجمعت الأمة مثلاً في عصر الصحابة وجميع عصور الإسلام على عصمة القرآن، وحفظه، وعدالة الصحابة الذين دونوه ونقلوه، وعلى وجوب العمل بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وكفر من جحدها اكتفاءً بالقرآن، وأجمعت كذلك على أن الصلوات خمس، وأن خير القرون القرن الذي كان فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى أن الخلافة شورى في أهل الإسلام، وعلى بقاء طائفة ظاهرة منصورة قائمة بالحق ظاهراً وباطناً حتى تقوم الساعة وأن كل من يدعي النبوة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر كذاب، وأن كل من ادعى المهدية من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى يومنا هذا فهو كذاب ملبس أو ضال منحرف، وأجمعوا كذلك على أن الجهاد وقتال الكفار فريضة ماضية إلى يوم القيامة، وبالتالي فكل من خالف في شيء من ذلك أو مثله مما أجمعت عليه الأمة فهو خارج عن سبيل المؤمنين.

والخلاصة أنه لا يجوز لمسلم الخروج برأي أو قول أو اجتهاد يخالف به إجماع الأمة في أي عصر من عصورها، ومن شذ شذ في النار.

ب- والالتزام الآخر بجماعة أهل الإسلام هو الالتزام بإمامهم بيعة له، وسمعاً وطاعة، ولزوم ما اتفقوا عليه، وارتضوه فإذا اتفق جمهورهم على إمام وجب على الجميع الإتفاق عليه وبيعته، ومن شذ عن جمهورهم فقد شذ في النار، لقوله صلى الله عليه وسلم [إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما]. وقوله [من جاءكم وأمركم جميع على رجل يريد أن يفرق جماعتكم أو يشق عصاكم فاقتلوه بالسيف كائناً من كان] (متفق عليهما). وإذا اتفقوا على سلم أو صلح أو هدنة، أو فعل مصلحة من مصالح المسلمين وجب على الجميع طاعتهم في ذلك والإقرار به حتى لا تشق العصا، وتتفرق الجماعة، وذلك أن هذه الأمور جميعها وما يماثلها تخضع للاجتهاد، والاجتهاد يصيب ويخطئ، ويستحيل أن يجمع المسلمون في هذه المسائل على رأي واحد. ولذلك وجب على الإمام أن يشاور أصحابه في ذلك فإذا أشاروا عليه، وارتأى جمهورهم رأياً ما وجب على الجميع بعد ذلك طاعته واتباعه، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم موصياً امراءه: [وإن أنت استنزلت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله

وحكم رسوله فلا تنزلهم على حكم الله وحكم رسوله لأنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله وحكم رسـولـه أم لا، ولكن أنـزلهم علي حكمك وحكم أصحابك] (رواه مسلم).

وفي هذا الحديث من الفوائد ما يلي:

1- أن الاجتهاد حق للإمام الخاص كإمام الجيش ونحوه، وليس الاجتهاد وقفاً على الإمام العام فقط.

2- أن الأمير الخاص يجب أن يستشير أصحابه; لأن الرسول يقوله له [فأنزلهم على حكمك وحكم أصحابك].

3- أن الأمير قد يصيب حكم الله وقد يخطئ وهو مأجور على كل حال.

4- أنه يجب على الأقل أن يتبع الأكثر وأن يرضى العدد القليل باجتهاد العدد الأعظم الذي يؤيده رأي الأمير واجتهاده.

5- أن من خرج في الأمور الاجتهادية عن حكم الأمير وأصحابه فهو شاذ منحرف لأن الأمور الاجتهادية الخاضعة للمصالح والمفاسد يستحيل معرفة الصواب فيها على الفور. وهذا هو الشاهد من هذا الحديث العظيم.

والخلاصة أنه لا يجوز لمسلم يجد الإمام العام للمسلمين إلا ويجب عليه بيعته ولزوم جماعة الإسلام لقول رسول الله صلى اله عليه وسلم: [الزم جماعة المسلمين وإمامهم] (متفق عليه)، وقوله صلى الله عليه وسلم: [من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية] (رواه مسلم).

إذا لم يكن جماعة ولا إمام:

وأما في الأزمان والأماكن التي لا إمام فيها ولا جماعة لأهل الإسلام فإن المسلم مطالب:

أ- إما بالسعي في إيجاد ذلك إن كان هناك سبيل إلى ذلك.

ب- وإلا الانعزال مطلقاً إذا لم يكن ثمة حيلة ولا سبيل إلى ذلك كما هو الحال في آخر الزمان وحصول الابتلاء الشديد حيث لا يوجد فقط إلا دعاة على أبواب جهنم من أطاعهم قذفوه فيها، وحينئذ يأتي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: [اعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك] (متفق عليه من حديث حذيفة بن اليمان). وسيأتي لهذا الحديث تفصيل وبيان في مقام آخر إن شاء الله تعالى.

ولا شك أن هذا الوقت الذي يشير إليه الرسول صلى الله عليه وسلم ويأمر فيه بالعزلة عن الناس جميعاً ليس هو وقتنا هذا، ومن حمل هذا الحديث على اختلاف جماعات الدعوة فقد أخطأ خطأً عظيماً بل ضل ضلالاً بعيداً، إذ كيف يكون الدعاة في جماعات الدعوة المهتدية (دعاة على أبواب جهنم من أطاعهم قذفوه فيها) وسيأتي لهذا الحديث تفصيل وبيان في مقام آخر إن شاء الله تعالى.

جماعة الخير والدعوة الشرعية:

وتطلق "الجماعة" أيضاً اصطلاحاً على جماعة الخير والبر والدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله، وهذه الجماعة لا شك في مشروعيتها سواء مع وجود الإمام العام أو في غير وجوده وقد ذكرنا أدلة المشروعية بل الوجوب مستوفاة في رسالة مستقلة بعنوان "مشروعية الجهاد الجماعي".

ولأن كثيراً من الناس تختلط في أذهانهم الأمور فيجعلون الحكم، واحداً في الفرق، والأحزاب، والجماعات، والهيئات ولا يميزون بين تجمع مشروع وتجمع مبتدع وتجمع ضال منحرف، ولا يميزون كذلك بين الظروف والملابسات، وتغير الأحكام بتغير الزمان والمكان.

ومن أجل ذلك نبين هنا أن الجماعات على أقسام:

1- جماعة ضالة اجتمعت على بدعة مكفرة وشذت عن إجماع الأمة أو كتاب الله أو سنة رسوله بشذوذ مكفر فهم كفار مارقون، وإن تسموا بمسمى الإسلام.

كالفرق الضالة المنحرفة الذين ابتدعوا عقائد، أو مناهج مخالفة لدين الإسلام، أو الذين خرجوا على المسلمين بالسيف كالخوارج المارقين ومن على شاكلتهم إلى يوم الدين.

2- جماعة من أهل الإسلام اجتمعت على شيخ أو إمام أو عمل من الأعمال الصالحة، ولكنهم في اجتماعهم أخذوا من الإسلام وتركوا، وقدموا اجتهاد إمامهم وشيخهم على اجتهاد غيره كأتباع المذاهب المعروفة، أو كان منهم نوع تعصب لرأيهم ومنهجهم، أو بعض أمور مبتدعة لا تخرج من الدين، أو خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فلا شك أن جماعتهم مشروعة وفيهم من الحق بحسب ما التزموه، ومن الباطل بحسب ما أخذوه ولا شك أن مثل هذه الجماعة مشروعة لأن أصلها تعاون على البر والتقوى والدين والله يقول: {وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان}. وهذه الجماعات على ما فيها من الابتداع فهي في حكم المجمع على مشروعيتها كالإجماع على جواز الاجتماع على إمام والتسمي باسمه واتخاذ مذهبه في الاجتهاد كما سميت الحنابلة، والشافعية، والمالكية، والحنفية، وكما كان لكثير من الصحابة والتابعين من أهل الفتيا تلاميذهم، وخواصهم، وكما كان لكثير من الشيوخ، كمسافر بن عدي الذي أثنى عليه شيخ الإسلام ابن تيمية وجماعته في أول أمرهم، وعبدالقادر الجيلاني، ونحوهم كثير من السلف والدعاة والمصلحين، والأئمة... ولا يضير هؤلاء بالطبع ما يقع من انحراف بعدهم في اتباعه فهذه سنة الله في الدعاة والمصلحين أنه تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما يؤمرون، وهؤلاء هم النصارى من شر أهل الأرض اليوم ويزعمون أنهم على دين عيسى عليه السلام، وهؤلاء اليهود اليوم هم شر الخلق والخليقة ومع ذلك يزعمون أنهم على دين موسى، وهل المسلمون اليوم يزعمون أنهم على دين محمد صلى الله عليه وسلم هم كذلك إلا من

هدى الله منهم، والمهم أن انحراف الأتبـاع بعد مضي الزمـان لا يـدل على حرمة الاجتماع، وعلى أن الضلال والفساد كان منه.

3- جماعة مهتدية قائمة بـالحق على هـدي الكتـاب والسـنة وإجمـاع الأمة ومنهج السلف الصالح. لا يتحركون إلا وفق أحكـام الـدين، ولا يجاهـدون إلا على بصـيرة كما كـان شـأن الجماعـات الإسـلامية المجاهـدة العاملة على مدار تاريخ الإسـلام أخص من ذلك جماعة شـيخ الإسـلام ابن تيمية العاملة المجاهدة وقد أفردنا ذلك بكتاب أسـميناه شـيخ الإسـلام ابن تيمية والعمل الجمـاعي، والجماعة المجاهـدة المجـددة للـدين الـتي أسس بنيانها شـيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب والـتي أقـامت الـدين بعد أن انفـرط عقـده، وأعلت منـار التوحيد بعد أن هـدم ركنـه. وما زلنا نعيش آثـار هـذه الـدعوة المباركة إلى اليوم.

والخلاصة أن أي جماعة تجتمع على مقتضى الكتـــاب والســـنة والالـــتزام بإجماع الأمة، ولزوم جماعة المسلمين وإمامهم هي جماعة مهتدية راشدة ما دام أن اجتماعها وفق هذه الأصـول ووفق قوله تعـالى: {وتعـاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعـدوان}. سـواء كـان ذلك في وجـود الإمام العام أو غيابه، وذلك أن وجـود الإمـام العـام لا يلغي وجـود الجماعة الصغرى، وجماعة الدعوة والبر والإحسان.

فإذا كان الإمام العام راشداً قائماً بـالحق فـإن الجماعة الصـغرى سـند له وقـوة. ألا تـرى أن الأوس وعلى رأسـهم سـعد ابن معـاذ، والخـزرج وعلى رأسـهم سـعد بن عبـادة، كـان كل منهما سـنداً وقـوة للرسـول والإسـلام وكانت كل جماعة منهما تنافس الأخرى في السبق والجهاد والامتثـال لأمر الله ورسـوله، وكـان كل منهما يقـول: "يا رسـول الله ضـعنا حيث شـئت وأمرنا بأمرك".

ولما كلف رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم محمد بن مسـلمة وهو من الخــزرج أن يقتل كعب بن الأشــرف اليهــودي لم يقر للأوس قــرار حــتى يحققـوا منقبة مسـاوية من أجل ألا يسـبقوهم فطلبـوا من الرسـول مثلها فأرشدهم إلى قتل سلام ابن أبي الحقيق في خيـبر فخـرجت جماعة منهم إليه فقتلوه. فهل كان هؤلاء إلا جماعات على مستوى القبيلة؟

ولكل جماعة رأس مطاع وهم في تجمعهم سند وقوة للدين والإمـام، فهل قام الرسول صـلى الله عليه وسـلم بتمـزيقهم؟ وقـال: لا ولاء إلا للإسـلام فقـط، ولا تجمع إلا على الرسـول والإمـام فقـط.. أم أن رسـول الله أقر اجتماعهم وإمامتهم الخاصة، وولاءهم القبلي، بل إنه قد حصل من الخزرج تعصب للقبيلة وموالاة لها وخـروج على أمر الرسـول الـذي أنكر اسـتطالة عبد الله بن أبي الخـــزرجي المنـــافق في عرضه واتهامه لأم المؤمـــنين عائشة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم وقال مخاطباً الصحابة جميعاً: [يا معشر المؤمـنين من يعـذرني من رجل قد بلغـني أذاه في أهلي]. وكـان رســول الله صــلى الله عليه وســلم يعــني عبد الله بن أبي بن ســلول الخزرجي فقام سـعد بن معـاذ الأنصـاري الأوسي فقـال: أنا أعـذرك منه يا رسـول الله إن كـان من الأوس ضـربنا عنقه وإن كـان من الخـزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. فقام سعد بن عبـادة وهو سـيد الخـزرج (أي أمـيرهم) وكـان

رجلاً صالحاً ولكن أخذته الحمية فقال لسعد بن معاذ: كذبت -لعمر الله- لا تقتله ولا تقــدر على قتله ولو كــان من رهطك ما أحببت أن يقتــل. فقــام أسيد بن حضير، وهو ابن عم معاذ فقال لسعد بن عبادة: كـذبت. لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجـادل عن المنـافق!! فتثـاور الحيَّان الأوس والخـزرج وهموا أن يقتتلوا ورسول الله يخفضـهم حـتى سـكتوا وسـكت رسـول الله صلى الله عليه وسلم (رواه الإمـام البخـاري من حـديث عائشة رضي الله عنها).

والشاهد أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم لم ينه عن هـذه التجمعـات التي يمكن أن تؤدي فيها العصبية إلى مثل هـذا. بل بقى للأوس اجتمـاعهم ورئاستهم، وللخزرج كذلك، وكانوا كما أسلفنا متعـاونين في أكـثر أمـورهم على البر والتقوى متنافسـين في خدمة الـدين، وأحيانـاً يقع منهم التعصب والإخلال، في أصل المـــوالاة، ومع ذلك لم يكن هـــذا ليلغي اجتمـــاعهم وجماعتهم.

وهكذا شاهد تاريخ الإسلام كله في ظل الخلافة الراشـدة وخلافة بـني أمية بعد ذلك، وخلافة بني العباس وبني عثمان وغـيرهم من الجماعـات الخاصة الدعوية، والجهادية، والعلمية، والقبلية ما لا يحصيه إلا الله سبحانه وتعالى. ولا أعلم دليلاً من كتـاب أو سـنة صـحيحة عن رسـول الله صـلى الله عليه وسلم أو قول عالم ممن يحتج بعلمه يفتي بأنه لا يجـوز تجمع راشد ملـتزم بآداب الكتاب والسنة في ظل الإمام العـام، أو أن لا تجمع إلا بـإذن الإمـام العام.

وأما مشروعية الجماعة وقت انحراف الإمام العام أو تقصيره أو غيابه فهو أمر لازم واجب. ألا ترى في قـول عمر بن الخطـاب رضي الله عنـه: (وإذا أسأت فقوموني). إنها دعوة إلى الضغط على الإمـام المنحـرف ولا يكـون ذلك إلا بقوة الجماعة لا بقوة الفرد الـذي يمكن أن يؤخذ إذا لم يكن هنـاك نصير له، وكذلك يفهم من قوله صلى الله عليه وسلم [إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكـرون فمن كـره فقد بـرى ومن أنكر فقد سـلم، ولكن من رضي وتابع. قالوا: يا رسول الله ألا نقـاتلهم قـال: لا.. ما صـلوا] (رواه مسلم).

فهذا إقرار ضمني من الرسول صلى الله عليه وسـلم بمشـروعية الجماعة لتغيير منكر الإمام وكـذلك بوجـوب الإنكـار عليه عند رؤية المنكر الـذي هو دون ترك الصلاة، ووجوب قتاله عند تضييع الصلاة، ولا يكون هذا ولا هذا إلا في إطـار جماعة عاملة فاعلة تسـتطيع أن توصل رأيها عند فسق الإمـام، وتسـتطيع أن تزيلـه، إذا تـرك الصـلاة أو كفر كفـراً بواحـاً لا تأويل له ولا تفسير إلا بالكفر.

ولا شك أن من رأى ضيعة الدين والإسلام وزوال أحكـام الشـريعة، وتبـدل أصـول الـدين ثم هو يفـتي بعـدم مشـروعية الجماعة من أجل إزالة هـذه المنكرات أقول: لا شك أن من أفتى بذلك فقد أخطأ الطريق. وأمر الناس بترك الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر الـذي هو قـوام حيـاة هـذه الأمة وسر وجودها، ولولاه ما بقي الدين والإسلام، وإذا كان المقصـود من إنكـار المنكر وزوالـه، ومن الأمر بـالمعروف حصـوله فلعمر الله إن هـذا وهـذا لا

يتأتي إلا بعمل جماعي وليس بعمل فردي وأني للفرد النـاهي عن المنكر -لو وافته الشـــــجاعة ونهي- أن يصل إلى إزالة المنكـــــر؟! وأني للآمر بالمعروف وهو فرد ضعيف أن يملك حصول ما يأمر به من المعروف؟!

والخلاصة أن الجماعة أقـــدر من الفـــرد في الوصـــول إلى هـــدف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وحال الأمة اليوم يستدعي بل يوجب وجوبـاً لا محيص عنه التنـادي والتعـاون من أجل نصر الـدين، وإعلاء شـريعة رب العـالمين، وإزاحة المنكـرات العظيمة الـتي أشـاعها المجرمـون العـابثون الذين نفتح لهم الأبواب ويلقـون التأييد والتشـجيع، وأما أهل الحق والـدعاة المخلصـــون فهم الغربـــاء المنبـــوذين المـــدفوعون عن أبـــواب الظلمة الغاصبين.. فهل في مثل هذه الأحـوال والأزمـات يُفـتى أنه لا يجـوز اليـوم تجمع على نصر الـدين، وإعلاء كلمة رب العـالمين؟! سـبحانك هـذا بهتـان عظيم.

والخلاصة أن جماعة الدعوة المشروعة هي الـتي تقـوم وفق المواصـفات الآتية:

1- أن يكون التزامها بكتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة.

2- أن تكون موالية لجماعة المسلمين وإمامهم الواجب الطاعة.

3- ألا تشق عصا المســلمين، ولا تخلع يــداً من طاعة وألا تكــون لها ولاية خاصة قاضية أو مقدمة على الولاية العامة للإسلام وأهله.

4- ألا تقدم مصـلحة أفرادها على مصـلحة المسـلمين العامة بل أن تكـون مصلحتها هي مصلحة الإسلام والمسلمين.

5- ألا تدعو إلى عصبية ولا تنصر عصبية.

ولا شك أن أي جماعة من جماعات البر والتقوى والخير والـدعوة الـتزمت ذلك فهي جماعة مشروعة.

وأما حكم هــــــــذا التجمع فهو إما واجب حتمي إذا دعت الحاجة إليه لما أسـلفنا من نصر الـدين، أو أنه دعـوة إلى الخـير لا تتحقق إلا بالاجتمـاع، أو إنكـار منكر لا يحصل إلا باجتمـاع، أو دفع شر وضـرر عن الأمة لا يتحقق إلا باجتماع.

وقد تكـون مسـتحبة إذا كـان الأمر دون ذلـك، وقد تكـون مباحة إذا كـان تجمعها من أجل أمر مباح كنفع مادي دنيـوي كتجمع النقابـات، والجماعـات المهنية (الأطبـاء، والمدرسـين، والعمـال.. إلخ). ونحو ذلك مما يقصد منه نفع أصحاب مهنة، أو بلد، أو نحو ذلك.

وكل تجمع على باطل فهو باطل كما قــال تعــالى: {وتعــاونوا على الــبر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان}.

والخلاصة لكل ما أسلفنا أنه يجب على كل مسلم في أي مكان في الأرض أن يلـوذ بإمـام المسـلمين حيث يوجـد، وأن يلـزم جماعة المسـلمين حيث توجد، وأن يلزم جماعة المسلمين العامة وألا يخرج على إجماعهم بقول أو

رأي ويجب عليه أن يـدخل فيما دخل فيه جمهـورهم. ولا شك أن الجماعة العامة لا تلغي الجماعة الخاصة بل هي درع للإمـام، وقـوة للمسـلمين، ولا يجوز أن تكون بديلاً أو نقيضاً لجماعة المسلمين العامة وإمامهم، وأما في غيبة الإمام العام فالكل يأثم بالقعود عن وجوده لأنه من فـروض الكفايـات التي لا يجوز تضييعها، ويجب على المسلمين جميعـاً في كل مكـان أفـراداً وجماعات أن يكون عملهم لنصر الإسلام ووحدة المسلمين.

الأصل الثالث

حدود الالتزام بجماعة الدعوة

عرفنا في الفصل السـابق أنه يجب على كل مسـلم في أي مكـان من الأرض أن يلوذ بإمام المسـلمين حيث يوجـد، وأن يلـزم جماعة المسـلمين العامة، ولا يخرج على إجماعهم بقول أو رأي، وأن يـدخل كـذلك فيما دخل فيه جمهورهم من الأمور العملية، وعرفنا كذلك أن الجماعة العامة لا تلغي الجماعة الخاصة بل إن الجماعة الخاصة المهتدية درع للإمـام، وقـوة لأهل الإسـلام وقلنا إن من مواصـفات الجماعة الخاصة المهتدية أن تكـون على منهج الكتاب والسنة، وعمل السلف الصالح، وأن تكون في خدمة الإسلام، لا أن تجعل الإسلام في خدمة عصبيتها، وأن يكون هـدفها إعلاء كلمة اللـه، والتعاون على والتقوى. والآن نأتي إلى السؤال الذي يطرح وهو أنه عنـدما تـذكر الجماعة الخاصـة، ما حـدود الطاعة في هـذه الجماعـة؟ وما حـدود النظام فيها؟ وهل طاعة المقدم في هذه الجماعات كطاعة الإمـام العـام، والخـروج من طاعته كـالخروج عن بيعة إمـام المسـلمين؟ وهل الالـتزام بنظام جماعة الدعوة كالالتزام بجماعة المسلمين؟ أم ماذا؟

وإذا كـان الالـتزام بحـدود من النظـام والطاعة في الجماعـات الخاصة (جماعـات الـدعوة) واجبـاً فما مشـروعية ذلـك؟ أي ما الـذي يـدل على مشروعية الطاعة لأمير الجماعة الخاصة من الكتاب والسنة؟

وللإجابة على كل ذلك نقول:

1- قد عرضـنا بحمد الله آنفـاً أدلة مشـروعية الجماعة الخاصة سـواء في حضور الإمام العام أو غيبته، بما يغني عن إعادته هنـا. وبأدلة لا يمكن ردها أو معارضتها إلا مكابرة ولجاجاً.

2- وأما مشـروعية الطاعة والنظـام في الجماعـات الخاصة ففي الكتـاب والسنة عشرات الأدلة من ذلك ولكن قبل عرض هذه الأدلة فإننا نقـول إن هـذا من البـديهيات والمسـلمات. ومعلـوم أنه في البـديهيات وفي الأمـور المسلمة لا نحتاج إلى أدلة من الكتاب والسنة لأن الكتـاب والسـنة لم يأتيا بتوضـيح الواضـحات ولا تحصـيل الحاصـل؛ لأن الجـدال في إثبـات تحصـيل الحاصل عبث ولعب كإقامة الدليل على أن الشمس طالعة وقت طلوعهـا، وأن الواحد نصف الاثنين، وأن الليل يعقبه نهار والنهار يعقبه ليل مثل هــذه الأمور لا يحتـاج في إثباتها إلى أدلة من الكتـاب والسـنة لأن المخـاطب إذا احتاج إلى أدلة لإثبات ذلك فإنه لا يفيد معه شيء ولا يصح معه دليل.

وليس يفيد في الأذهان شيء   إذا احتاج النهار إلى دليل

ونحن نقول: (النظام خير من الفوضى). هل هـذه البديهية تحتـاج إلى دليل لإثباتها ونقول أيضاً (لا جماعة إلا بطاعة) هل هذه البديهية تحتاج في إثباتها إلى دليل من الكتاب والسنة؟! هل يمكن أن تسمى جماعة إلا إذا كـان لها رأس وفيها أمر وطاعة، وقرار ثم التزام بالقرار وعمل به. إن هنـاك فرقـاً بين الجماعة والمدرسة الفكرية، أو النادي، أو التجمع الغوغائي والعشوائي ومن لا يستطيع أن يفـرق بين هـذا وهـذا فإنه يحتـاج إلى درس طويل في البديهيات والمسلمات.

3- وأما الأدلة الشرعية على مشروعية الطاعة في الجماعة الخاصة فأكثر من أن تحصر. منها قوله صلى الله عليه وسـلم: [إذا خـرج ثلاثة في سـفر فليؤمر أحـدهم]. رواه أبو داود عن أبي هريـرة وأخرجه الإمـام أحمد بلفظ [لا يحل لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة إلا أمَّرُوا عليهم أحدهم].

وهـذا الحـديث أصل في الجماعة الخاصـة، وأنه لا يحل لأي من المسـلمين ثلاثة فصاعداً يكونوا في فلاة (وهي نوع من العزلة) أو في سفر وهو عمل مشترك مباح أو واجب أو مستحب إلا ويجب عليهم أن يكـون، منهم أمـير، ولا شك أنه يقاس على ذلك جماعة الغربة في بلاد غير المسـلمين وكـذلك كل أمر مشترك يقوم به المسلمون معاً.

ولا شك أن جماعة الدعوة والتي يناط بها مهمات عظيمة كـأمر بمعـروف، ونهي عن منكـر، وفعل للخـير، ونشر للفضـيلة، وسد لحاجـات المسـلمين، وقيــام بفــروض عظيمة من فــروض الكفايــات، بل إن بعض الجماعــات الدعوية تقوم اليوم بـأعظم فـروض الكفايـات وهو الجهـاد في سـبيل الله وقتال الكفار، فهل يتصور عاقل أن تكون مثل هذه الجماعات التي تتصدى لمثل هذه الأعمال العظيمة الجليلة بلا رأس ولا نظام ولا قـرار، ولا الـتزام ولا طاعة؟!..

ومن الأدلة على ذلك أيضــاً الأوامر العامة في الكتــاب والســنة بــالالتزام بجماعة الإسلام، والتعاون على البر والتقوى، والاعتصام بحبل الله جميعــاً، والنهي عن الفرقة والخصام ووجوب أن يكـون لكل جماعة من المسـلمين أمير خاص، وألا يخرج جيش إلا مع أميره، وقائده، وألا تترك مدينة ولا قرية إلا وفيها أميرها وقائـدها فـإن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ما تـرك المدينة قط في سـفر إلا وأمَّر رجلاً، علمـاً بأنه ما كـان يبقى فيه غالبـاً إلا الأطفال والنساء. وهذه النصوص الكثيرة والوقائع المتعـددة، والبنـاء العـام لشريعة الإسـلام كلها شـواهد أنه يجب عند التصـدي لأي عمل جمـاعي أن يكون له أمير ونظام وقرار.

4- ولا شك أن جماعة الــدعوة إلى الله جماعة مشــروعة في كل وقت وزمان، وهي اليوم فرض واجب في كل مكـان سـداً للثغـور الـتي انفتحت على أمة الإســلام وتكميلاً للنقص الحاصل من أولي الســلطان، ودرءاً للأخطار العظام التي باتت تهدد أمة الإسلام، دفعاً لأعـداء الله في الخـارج والداخل الذين يعملون جاهدين لإطفاء نور الله ويأبى الله إلا أن يتم نـوره، ولا شك عند كل ذي لب وبصيرة أن جماعات الدعوة هي اليوم حاملة لواء

الإسلام، القائمة بنشر نور الله في العالمين، ولا شك أن القائمين في هذه الجماعات المحتسبين وقتهم وجهـدهم وعطـاءهم لله لا يريـدون من ورائه علواً في الأرض ولا فساداً، وإنما يريدون وجه الله الكـريم، هم خـبر البرية كما قـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: [ألا أخـبركم بخـير البريـة؟] قالوا: بلى يا رسول الله، قال: [رجل آخذ بعنان فرسه في سـبيل الله كلما كانت هيعة استوى عليه] رواه الإمام أحمد.

ولا شك أن القـائمين اليـوم في كل مكـان جهـاداً بالكلمة ونشـراً للـدين، وإزهاقاً للباطل لهم نصيب من ذلك، فـإن الباطل كما يقمع بالسـيف، فإنه يقمع بالحجة والبيـان، كما قـال تعـالى: {بل نقـذف بـالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصـفون} وقـال تعـالى: {ولو شـئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً. فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيرا}.

ولا شك أن مثل هذه الجماعات التي هذه أهـدافها وغاياتها والحاجة إليها لا يمكن أن تـؤدي دورهـا، وتقـوم بمهامها إلا وفق نظـام، وتحت إمـرة قائـد، وفي إطار قرار محترم مطـاع، وإلا كـانت مجـرد تجمع غوغـائي عشـوائي، تلقى فيها الأقوال والآراء، ولا يخرج من وراء ذلك عمل ولا خطة ولا نظام.

5- وأما مســتند الطاعة في الجماعــات الخاصة فإنه علاوة على ما ســبق التزم بالشرط الاختياري الذي شرطه المسلم على نفسه، وقد قـال صـلى الله عليه وسلم: [المسلمون عند شروطهم]. والفرد الــداخل في الجماعة الخاصة يدخل في ضمن شروط اختيارية قد وافق عليها وبالتالي فإذا قبلها فقد أخذ على نفسه عهداً بالإلزام والوفاء وهذه الشروط إذا كانت موافقة للكتاب والسنة فالالتزام بها حق لقوله صلى الله عليه وسلم: [المسـلمون عند شروطهم] وقوله تعالى: {يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود} والآية عامة يدخل فيها كل عقد سـواء كـان عقـداً مع الله أو مع النـاس.. وأما إذا كـان الشرط باطلاً فلا يجوز الوفاء به لقول صلى الله عليه وسـلم: [كل شـرط ليس في كتاب فهو باطل وإن كان مائة شرط] (رواه البخـاري من حـديث عائشة رضي الله عنها).

وقد أسـلفنا فيما سـبق بيـان مواصـفات الجماعة المهتدية فـإذا كـانت الشروط الداخلية فيها موافقة للكتاب وسنة النـبي صـلى الله عليه وسـلم فهي شروط جائزة يجب لمن قبلها أن يلتزم بها من باب الوفاء بالشـروط والالتزام بالعهود وأما إذا كـانت شـروطاً مخالفة للكتـاب والسـنة وإجمـاع الأمة فلا يجوز الوفاء بها قولاً واحداً.

6- وقد يقول قائل: وما الداعي للمسلم اليوم أن يلـتزم شـيئاً هو يلـزم به نفســه، ويــدخل في شــروط تقيــده ويجب عليه أن يعمل بمقتضــاها وما مصلحة المسلم في ذلك؟ ونقول: إن هـذا من بـاب المشـروع المسـتحب [فمن نذر أن يطيع الله فليطعه] كما قال صلى الله عليه وسـلم، والـداخل في إطار جماعة الدعوة المهتدية بمثابة الناذر أن يطيع الله في إطار خطة ونظام وعهد.. نعم قد ألـزم نفسـه، وقيد حريتـه. ولكنه ألـزم نفسه بطاعة ومعـروف وجهـاد في سـبيل اللـه، وتـرك حيـاة البطالة والكسل والغفلة والهــــوى، أو على الأقل الراحة والدعة أو على أقل الأقل تــــرك العمل الفردي المحدود إلى العمل الجماعي الواسع عظيم القدر والأثر فإن عمل

الجماعة غير عمل الفرد، وكلما اتسـعت الجماعة وتعـددت أوجه نشـاطها، وزادت فاعلية أفرادها كلما كـــان أثرها أعظم ونفعها أعم، فالـــداخل في إطار العمل الجماعي ناذر لله معاهد له أن يعمل في إطـار وخطة ونظـام، ولا شك أن هـذا نـذر مشـروع مستحب بل هو اليـوم من ألـزم الطاعـات وأعظم القربات، لأن حاجة المسلمين إليه اليوم أشد حاجة.

7- ولا شك أن حـــدود الطاعة في هـــذه الجماعـــات الخاصة إنما هي في حدود الشـروط الموضـوعة المتفق عليهـا، وفي حـدود ما قـامت من أجله الجماعة وما تريد تحقيقه من أهداف، وكذلك في حدود الكتاب والسنة وما أجمعت عليه الأمة.. إذا كـان الأمر كـذلك فالطاعة واجبة والالـتزام واجب، ونقض هـذا أو التقصـير فيه إنما هو إخلال بالشـرط، ونقض للعهـد، وعـدم وفاء بالنذر ولا شك أن ذلك كله معصية لله عز وجل.

8- ولا شك أن حـدود هـذه الطاعة غـير حـدود الطاعة في إطـار الجماعة العامة والإمام العام فإن الطاعة هناك فرض واجب أشد إلزامـاً، والخـروج منها قد يـؤدي إلى الخـروج من الإسـلام كما قـال صـلى الله عليه وسـلم: [من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية].

وقوله صـلى الله عليه وسـلم: [من خـرج من الطاعـة، وفـارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية] رواه مسلم.

وأما جماعة الـدعوة فالأصل في الالـتزام فيها إنما هو ما سـلف من النـذر والعهد، وتغليب المصلحة الشرعية، ومعلوم أن هذا غير ذلك.

وأظن الآن أنه قد وضح السـبيل لكل ذي عيـنين وبصـيرة، وقد وضع الأمر كله في نصابه.

الأصل الرابع

إحاطة الإسلام من جميع جوانبه

خير من الاقتصاد على بعض شرائعه

الإسلام دين الله وصبغته، وقد جاء لهداية الإنسان في كل شأن من شؤون حياته على هـذه الأرض {ونزلنا عليك الكتـاب تبيانا لكل شـيء}. ولا يوجد نشاط إنسـاني، ولا فعل متصـور لجارحة من جـوارح الإنسـان إلا ولله فيها حكم شرعي {ولا تقف ما ليس لك به علم إن السـمع والبصر والفـؤاد كل أولئك كـان عنه مسـئولا}، {فمن يعمل مثـال ذرة خـيراً يـره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره}، {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد}.

ومن أجل ذلك كـان الإسـلام قضـية كـبرى، ودينا شـمولياً يسـتوعب حيـاة الإنسـان كلهـا، ومشـكلاته جميعـاً على الأرض، ويرشـده في كل ذلك إلى الحق الذي يحبه الله ويرضاه.

* ومهما تعـددت قضـايا النـاس، وتنـوعت مشـاكلهم، ومعـاملاتهم فـإنهم واجدون لـذلك هداية وحكمـاً: إما نصـاً في كتـاب الله وسـنة رسـوله، وإما

اجتهـاداً في إطـار هـذه النصـوص، وقواعـدها المقـررة وكلياتها العامـة، وأهـدافها الـتي تـدعو إليهـا. ولا يوجد نظـام آخر ولا دين آخر على الأرض اليوم يحدد للإنسان كل مسار حياته بدءاً بإزالة النجاسات ومروراً بحل كل مشكلاته، ونهاية بتزكية نفسه، وتهذيب روحه إلا الإسلام.

الدين الإسلامي لا يقوم إلا في إطار الأمة والجماعة:

ولا شك أن الإســلام نظـام جمـاعي لأنه دين لا يقــوم به إلا أمة ولا يمكن تحقيقه إلا من خلال الجماعة، لأن هذا الذين جعل غاياته إقامة كل شــريعة الإســـلام على الأرض، ومحاربة كل من يقف في طريقها وجعل كلمة الله هي العليا في الأرض كلها {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكـون الـدين كله لله}.

{هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله} الآية.

ولا شك أنه في غيبة الخلافة الإسـلامية الراشـدة القائمة بـذلك فـإن على الفرد أن يتقي الله حسب استطاعته، وأن يبذل غاية مستطاعه، وأن يقوم بـالحق ولو كـان وحـده.. ومن ذلك الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر، والتمسك بكلمة الحق، وعدم كتمـان العلم، وجهـاد الكفـار باللسـان إذا لم يمكن بالسيف. هذا فضلاً عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والصـوم، والحج، وصـلة الـرحم، وأكل الحلال، والبعد عن الحـرام، والبصـيرة في الـدين إلى آخر ما فرضه الله على كل مسلم ولو كان وحده.

ومعلــوم أن الفــرد مهما كـان قويـاً مجاهـداً فإنه لا يحق وحــده أهــداف الرسالة من نصر الدين، والانتصار على الكافرين واخضاع النـاس لشـريعة رب العالمين. بل لابد من الأمة والجماعة القائمة بالحق.

ولذلك فإنك لا تستطيع أن تقول إن شـريعة الإسـلام مطبقـة، وإن الكتـاب والسنة معمول بهما، إلا في إطار خلافة راشدة، ترفع لواء التوحيد، وتوالي بالإسـلام وعلى الإسـلام وتقاتل الكفـار لتكـون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، وأما في إطـار حكـام الطوائف والأقـاليم الـذين اهتم كل واحد منهم بحماية ملكه وسـلطانه، وجعل المـوالاة والمعـاداة على أساس التبعية له، والانتماء لحدود دولته فـإن هـذا أمر مسـتحدث في الدين، قد أحدثه الغربيون في أمة الإسلام بعد أن أزالوا خلافتهم، وقسـموا أوطانهم، واستعمروا بلادهم ونصبوا من شاءوا ممن يواليهم..

ولا شك أن هـذا الواقع اللاسـتثنائي الـذي تعيشه الأمة ليس هو الأصل في تاريخها، ولا هو المشروع في كتاب الله وسـنة رسـوله ولا شك أن الرضى بذلك رضى بغير حكم الله، وإقرار ذلك عن طمأنينة القلب كفر مخـرج من دين الله؛ لأنه في حقيقته إقرار ببقاء أمة الإسلام ضعيفة مسـتكينة، يطؤها أعداء الله، ويحكم فيها بغير حكم الله وشريعته.

ومن أجل ذلك قلنا وما زلنا نقـول إن أمـام المسـلمين واجبـات تنـوء بها الجبال، ومهمات لا يهتم بها ولا يحملها إلا الأبطال فإعادة أمة الإسـلام إلى مجـدها التليـد، ورفع راية التوحيد على كل أصـقاع الأرض ليس ضـرباً من الخيال، ولا هو من المحال بل هو الحق الذي لا شبهة فيه والذي بشـرنا به

الله ورسـوله في الكتـاب {هو الـذي أرسل رسـوله بالهـدى ودين الحق ليظهره على الدين كله}. [ولن يترك الإسـلام بيت حجر ولا مـدر إلا أدخله الله فيه بعز عزيز يعز الله به الإسـلام وأهلـه، وبـذل ذليل يـذل الله به الشرك وأهله].

[إنكم سـتفتحون، القسـطنطينية وإنكم سـتفتحون رومـا] وقـال ابن عمر (مدينة هرقل تفتح أولاً).

وأما هذه الرؤية الشمولية للواقع الكائن، وما ينبغي أن يكون لا يجـوز بتاتـاً أن نقـول إن جماعة واحـدة من جماعـات الـدعوة إلى الله -والـتي أثبتنا مشـروعيتها بل وجوبها بما لا مجـال للطعن فيه إلا مكـابرة- تسـتطيع أن تقـوم بكل ذلـك. بل إن الواقع الإسـلامي اليـوم ليفـرض على كل فـرد أو جماعة أن يبذل قصارى جهـده، وغاية كـده وجهـاده، لعله أن يرفع لبنة في البناء المتهاوي إلى مكانهـا، أو يسد خرقـاً أو قفل ثغـرة من الثغـور يـدخل العدو من خلالها إلى هذه الأمة.

ولا شك أيضـاً أنه كلما توسـعت جماعة الـدعوة واسـتطاعت أن ترقع في ثوب الإسلام أكثر من خرق، وأن تقفل في وجه أعدائه أكـثر من ثغـر، وأن تبني في صرح الإسلام أكثر من لبنة كان هذا أفضل وأكمل.

فكيف تـرى لو أن عالمـاً من علمـاء المسـلمين اهتم بتربية مجموعة من التلاميذ على فضـائل الـدين، وأوقف نفسه على ذلك كـان ذلك منه حسـنا، فماذا لو أنه مع اهتمامه الأول كـان يتصـدى للـرد على الملاحـدة والزنادقة والمنحرفين، وماذا لو أنه مع ذلك كان آمـراً بـالمعروف ناهيـاً عن المنكـر، وماذا لو أنه كان كذلك قائماً بالشفاعة الحسنة لإخوانه المسلمين ومتفقداً للأرملة والمسـكين، وبـاذلاً جـزءاً من وقته لإصـلاح ذات الـبين بين المتخاصمين.

وانظر هذا في سيرة علم من أعلام الأمة المعاصـرين كشـيخنا عبد العزيز بن باز حفظه الله، ألا ترى أن مثل هذا في الناس يعمل عمل أمة.. وهكـذا الشأن في عمل جماعـات الـدعوة إلى الله فلو أن جماعة قصـرت نفسـها على مهمة واحدة من مهمات الـدين، وخصصت عملها كله في شـأن واحد من شـؤون المسـلمين لكـان هـذا حسـناً وليس بسـيء، أما إذا وفقها الله سبحانه وتعالى فتعددت منافعها، وتشعبت أعمالهـا، لكـان هـذا فضـلاً على فضل وإحساناً على إحسان.

ولكن الـذي نحـذر منه دائمـاً ألا يظن أن الاقتصـار على شـعبة من شـعب الإيمان هو الإيمان كله. فلا يجـوز لجماعة تقاتل العـدو أن تحتقر من يقـوم بتعليم العلم وتصحيح المعتقد، وتزكية النفـوس؛ لأن جهـاد الكفـار وحـده لا يغني عن ذلك، بل نحن نجاهد الكفار من أجل أن يزكوا أنفسهم، ويصححوا معتقـدهم، ويقيمـوا صـلاتهم على الوجه المطلـوب. فكيف يرضى من المجاهد مع جهاده في سبيل الله أن يكون سـيء الاعتقـاد، فاسد الطويـة، مصلياً صلاة، حكم الشرع ببطلانها أو فسادها.

والخلاصة أن هذا الدين لا يصـلح إلا لمن أحـاط به من جميع جوانبـه، وآمن بكل ما جاء به الرسـول من ربه عقيـدة وشـريعة، واتقى الله ما اسـتطاع، وعمل من الدين بما وسعه جهده.

الدعوة السلفية هي دعوة الإسلام الشمولية:

ولست واجداً بحمد الله وتوفيقه دعوة اليوم تمثل شمولية الإسلام، وتقوم على حقائقه العلمية من الدعوة الموسومة بالدعوة السلفية التي لا تنتمي إلى فـرد أو حـزب أو جماعة معينة وإنما تنتمي فقط إلى الكتـاب والسـنة، ومنهج السـلف الصـالح، وهـذه الـدعوة لا تشـرف بالرجـال، ولكن الرجـال يشرفون بالانتسـاب إليهـا، والـدخول فيهـا، وهي معصـومة لأن الحجة فيها لكلام الله وكلام رسوله فقـط، وقواعـدها الـتي أصبحت من قواعـدها في حكم الإجمــاع ولا شك أن كل جماعة من جماعــات الــدعوة تقــوم على أســاس من هــذه الـدعوة فهي جماعة مباركة ما الـتزمت الحـق، وعملت بالكتاب والسنة، والتزمت منهج هذه الدعوة.

كما أن كل عالم التزم هذه الدعوة فهو عالم مبارك متبع للصفوة من هـذه الأمة أصحاب النـبي وخيـار التـابعين، وأهل الحـديث، وأهل التوحيـد، وأهل السنة والجماعة جيلاً بعد جيل.

ولقد مثل أعلام هذه الدعوة وخاصة في عصور النكبات شـمولية الإسـلام، وادرس في ذلك سيرة شيخ الإسـلام ابن تيميـة، وشـيخ الإسـلام محمد بن عبدالوهاب ينبئك تاريخهما ومنهجهما في الـدعوة، كيف يحـيي الفـرد أمـة، وكيف تنشأ الجماعة بالفرد العامل، وكيف يمكن أن يعاد للإسلام مجده في عصور الانحطاط وأن ذلك لا يكون إلا من خلال جماعة عاملــة، وأمة قائمة وأن شــمولية الإسـلام تـوجب على الـدعاة أن يعملـوا في كل اتجـاه وأن يحـاولوا أن يسـدوا كل الثغـور، وأن هـدف الإسـلام العظيم هو إعلاء كلمة الله في الأرض كلها والذي لا يتأتى إلا بجهاد جماعي ترفع فيه راية التوحيد التي يكـون هم حامليها وغـايتهم الجهـاد لتكـون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

الأصل الخامس

لنحذر الأقوال الجانحة في العمل الدعوي

قدمنا بحمد الله أدلة لا تدفع على أن العمل الجماعي اليوم لنصرة الإسلام فريضة واجبة، وليس مجرد عمل صالح مشروع.

وقدمنا الشروط الأساسـية الـتي يجب توفرها في الجماعة الصـالحة، وبينا حـدود العلاقة الواجبة بينها وبين جماعة المسـلمين، وكيف تكـون المـوالاة والأخوة في إطار جماعة الدعوة وفي ظلال أمة الإسلام العامة.

وذكرنا الأدلة الوافية على أن النظـام والطاعة في إطـار جماعة الـدعوة لا يتناقض بتاتاً - مع الموالاة والـولاء لجماعة الإسـلام وإمامها العـام، وسـقنا

أمثلة من سيرة أصحاب النبي الكرام، وسلفنا الصالح بما يثلج صدر كل مؤمن.

واليوم نأتي إلى إلقاء نظرة على الواقع المعاش وما يجب أن يكون عليه العمل الجماعي للدعوة إلى الله..

الأهداف الكبرى للرسالة الإسلامية:

لا يمكن أن نعرف ما يراد أن نفعله اليوم إلا إذا عرفنا الأهداف التي نريد أن نصل إليها والغايات التي نريد تحقيقها. وإذا كان هدفنا هو ارضاء الله سبحانه وتعالى، والقيام بدينه، والتزام شريعته فإن الله سبحانه وتعالى قد حدد لنا أهداف الدين. ومن هذه الأهداف:

1- الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا في الأرض كلها كما قال تعالى: {وقتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله}.

وقال تعالى أيضاً: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً}. ومعنى هذا أنه يجب على المسلمين أن يقاتلوا حتى لا يبقى مؤمن يعذب، ويفتن عن دينه في الأرض كلها وحتى يعلو التوحيد الشرك في بقاع العالم جميعاً.

ولا شك أن اتباع الرسول واجب عليهم القيام بهذه المهمة عملاً يقول سبحانه: {قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني} وقوله تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله}.

2- العمل لتكون أمة الإسلام أمة واحدة تلتف حول علم واحد يتخذ قراره بعد مشورة. ودليل ذلك قوله تعالى: {واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا}. وقوله تعالى: {إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين ءاووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض}.

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً.. ومن أعظم الأدلة في ذلك إجماع أهل الإسلام جميعاً على وجوب تنصيب إمام يدين له كل أهل الإسلام بالطاعة والولاء، وأن الخروج من بيعته خروج من الدين وأن من مات وليس في عنقه بيعة له مات على شعبة من نفاق.

الواقع المعاصر:

ولا يحتاج أن نستفيض في الواقع المعاصر فكل زاوية فيه تدمي القلب، وتعصر النفس ألماً على أمة الإسلام التي أصبحت أمماً، والتي يتحكم فيها اليوم اللصوص المتغلبة الذين أصبحت أموال المسلمين ودماؤهم وأعراضهم نهباً لهم، والذي أصبح دين الله عندهم هدفاً وغرضاً يرمي بكل نبل، ولا شك أن الرضا بهذه الواقع كفر وردة، والراكنون إليه نفاق وظلم. قال تعالى: {ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون}. وأي ظلم أعظم من الصد عن سبيل الله، وإشاعة الفاحشة في بلاد الإسلام، والعمل لتكون كلمة الله هي السفلى، وإعلاء كلمة الكفر والباطل..، وهل الواقع المعاش إلا كذلك؟

المسلمون ومناهج التغيير:

ودعاة الإسـلام اليـوم، ومشـايخ الـدين، وطلاب العلم متفرقـون فيما يجب فعله خروجـاً من هـذا الواقع المرير إلى أفق الكتـاب والسـنة وتحقيق أهداف الرسالة الإسلامية.

وتكـاد أن تكـون الآراء في هـذا الصـدد بعـدد مشـايخ الـدين وطلاب العلم ودعـاة الإسـلام ولعل العـذر في ذلك أن الأفق الـذي تريد الوصـول إليه عظيم جداً، وحجم الكارثة الـتي وصل إليه المسـلمون عظيم جـداً كـذلك. وقد اتسع الخـرق على الراقع كما يقولـون..، وضـاعت الأهـداف والغايـات لأنها أصـبحت من قبيل الخـوارق والمعجـزات، والتبـديل الـذي يحتـاج إلى تبديل، {أن الله لا يغير ما بقـوم حـتى يغـيروا ما بأنفسـهم} وأنَّى أن نغـير أمة الإسلام التي أصـبحت مهيضة كسـيرة، بل كسـيحة لتقف على قـدميها مـرة ثانيـة، وتطـاول أمم الكفر والباطـل، وكما ضـاعت الأهـداف ضـاعت الأولويات كـذلك، فمن أين نبـدأ والنـار تلتهم منزلنا من كل صـوب؟ وكيف نرقع وقد اتسع الخرق من كل جانب؟ ومتى نقيم جداراً في البناء ومعاول الهـدم قد وصـلت إلى القواعد والأساسـات؟ وكيف نبـني أمتنا من جديد والهدامون يعملون ليل نهار وكلما جئت تبني أزاحوك عنها إلى مكان بعيد؟

ومتى يبلغ البنيان يوماً تمامه　　　إذا كنت تبني وغيرك يهدم

ومن أجل ذلك تعم الحـيرة مشـايخ الـدين وطلاب العلم ورجـال الـدعوة ويصدر كل منهم رأياً يخالف الآخر ولهم العذر في ذلك فحجم الكارثة أكـبر من كل اجتهاد..

ومع ذلك فلا بـأس من التنبيه على بعض الأقـوال الجانحة والسـاقطة في هذا الصدد فمن ذلك:

(1) اليأس من الإصلاح والقنوط من تحقيق أهداف الرسالة الإسلامية ومن ثم الرضا بالعزلة، والانقطـاع للعبـادة الفرديـة، وتـرك الـدعوة إلى الله ولا يخفى أن هـذا في الـوقت الحاضر إثم عظيم لعمـوم الآيـات في وجـوب الـدعوة والبيـان وعـدم جـواز كتمـان العلم، ووجـوب الجهـاد والإلتحـاق بالطائفة المنصورة إلى قيام الساعة.

(2) التعويل على العمل الفـردي، والجهـود العلمية المتواضـعة كنشر كتب العلم، وتحقيق بعض مســــائل الخلاف والظن - أن ذلك يمكن أن يحقق أهداف الرسالة الإسلامية ويغير واقع الأمة وهذا قول ساقط مخالف لسنن الله في الخلق، ثم أنه قول خـادع لأنه يـوهم أصـحابه أنهم من المجاهـدين القائمين على الحق وليسوا كذلك؟ ثم إن اتباع هذا القول إذا ظنوا أن هـذا هو الجهاد الـواجب، وعمل الرسل وهونـوا أو حقـروا من شـأن القيـام في وجه الباطل ومحاربة أعداء الأمة بالكلمة والسيف، والجهاد الجماعي، فإنه عملهم قد ينقلب إلى الصد عن سـبيل الله وتعويق مسـيرة الجهـاد في سبيله.

(3) ومن الأقـوال والمنـاهج السـاقطة كـذلك تحميل جماعة الـدعوة كل صلاحيات وعمل الإمام العام، وإلغاء كل الأولويات والقفز فوق كل حـاجز،

والدخول إلى معـارك يمكن تأخيرها والظن أن الوصـول إلى النتـائج يمكن أن يكون بغير الأسباب وكل هذا من الجهل بسـنن الله في الكـون والجهل بـالواقع المعاصـر، والسياسة الشـرعية الـواجب اتباعها حسب الظـروف والملابسات.

(4) ومن المناهج الجانحة في الدعوة تحويل العمل الجماعي ليكون هـدفاً في ذاته يحقق المنـافع المادية لأصـحابه حيث تحمل الجماعة أفرادها إلى المناصب الدنيوية، وتتكالب على المراكز والمؤسسات جاعلة الدين وسيلة إلى الدنيا والدعوة في خدمة الأفراد والإسلام صيداً للدنيا وهـذا من أعظم الفساد في الأرض والصد عن سبيل الله.

ولعله هـذا أعظم ما زهَّد النـاس في العمل الجمـاعي عنـدما رأوا بعض الجماعات بـدلاً من أن تكـون في خدمة الـدين، حـولت الـدين ليكـون في خدمة دنيا أفرادها.

(5) من أسقط المناهج والأقوال في الدعوة جعل نصر الدين وخـروج أهل الإسلام من محنتهم المعاصـرة منوطـاً بـترك كل المؤسسـات القائمة في المجتمـع: الجامعـات، والمـدارس، سـواء منها ما يـدرس الـدين أو الـدنيا، والوزارات كلها بلا استثناء، والمؤسسـات جميعها حكومية أو أهليـة، دنيوية أو دينيـة، والتحـول إلى دراسة فـرع أو أكـثر من فـروع العلم الـديني مع العيش عالة على ما يتفضل به المحســنون.. والعجيب أن أصــحاب هــذا القـول يقـدمون برنـامجهم هـذا، وحلهم الإسـلامي هـذا لمعضـلات الأمة الإسـلامية على أنه الحل الـذي لا حل غـيره، والـدين الـذي لا دين سـواه.. وهذا من أكثر المناهج سفاهة وجنوحاً.

(6) وفي السـاحة الإسـلامية كـذلك يعـرض بعض الـدعاة حلاً يقـوم على الدعوة إلى المعروف فقط وترك النهي عن المنكـر، وليسـقط المنكر في زعمهم -من نفسه- وترك الجهاد كله بالسـيف وكلمة الحق في وجه الظلم والكفر والطغيان.

- ومن أعظم المخـاطر في منـاهج الـدعوة إلى الله التمسك بجـانب من الحق وتــرك الجــانب الآخــر، وأخطر من ذلك رد الحق الــذي يتمسك به الطـرف الآخـر.. ولو أن كل داع إلى الله لم ينكر الحق الـذي عند الـدعاة الآخـرين لاكتملت الصـورة، وعمل بكل الشـريعة، وقـام المسـلمون بكل الـدين، وتحمل كل منهم جانبـاً من الحق والـواجب ولم نكن كما قـال الله تعالى في بعض أتبـاع الرسل السـابقة: {فتقطعـوا أمـرهم بينهم زبـراً كل حزب بما لديهم فرحون}.

والإسلام لا يصـلح إلا لمن حاطه من جميع جوانبه والـدعوة إلى الله اليـوم تحتاج إلى قتال بالسـيف للعـدوان على أمة الإسـلام، ولا يجـوز تـأخير ذلك عن وقت الحاجة إليه، وتحتاج إلى جهاد اللصوص المتغلبة الـذين يسـطون على مال الأمة وأعراضها ودمائها، وتحتاج إلى أخذ على يد الـذين يخرقـون سفينتنا ويريدون قاصدين أو جاهلين - إغراق أمتنا.

وتحتاج الأمة إلى تعليم الجاهل، وتنبيه الغافل وردع المعاند المكابر، وتربية النشء على الدين وتخريج العلماء العاملين المخلصين، وكل عمل من ذلك يحتاج إلى ميدان وإلى رجال وجهاد ومال.

وسد الثغور المفتوحة على أهل الإسلام يحتاج إلى آلاف الرجال العـاملين، وآلاف الآلاف من أمـوال المحسـنين، وجهـود آلاف الرجـال المخلصـين المصلحين، وتحتاج كذلك إلى أن يكون الـزمن جـزءا من العلاج، وأن يعمل في صالحنا إذا كان التقدم في البناء من نصيبنا لا من نصـيب أعـدائنا {أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون}.

وعلى الذين ما زالوا يمارون في مشروعية العمل الجمـاعي أن يتقـوا الله فيما يقولـون، وأن يقومـوا بما أوجبه الله عليهم لنصـرة الحق والـدين.. ويعلموا أن الله سـائلهم يـوم القيامة عن أمة الإسـلام الـتي بـاتت يسـتبيح اللصـوص أموالهـا، وينتهك الفسـاق أعراضـها، ويـدوس الكفـار مقدسـاتها، ويعيش فيها الإسـلام غريبـاً في ديـاره، حزينـاً في محرابـه، ملاحقـاً في السـجون والمعتقلات، ويسـير الكفر منتعشـاً في سـاحتها مزهـوا في ميادينها.

ثم بعد ذلك يفـتي من يفـتي ويقـول من يقـول: لا يجـوز اليـوم أن يجتمع مسلم مع ثـان وثـالث ليقولـوا كلمة حـق، أو يتصـدوا لظـالم، أو يسـاعدوا محتاجاً أو يردوا عدواناً عن أمة الإسلام.. سبحانك هذا بهتان عظيم.

ألا إني أقول مـرة ومـرة: ليتق الله هـؤلاء، ولا يلقـوا القـول على عواهنـه، وليعلموا أن الله سائلهم عما فـاهت أفـواههم وألفت أقلامهم من قـول قد شل آلاف الآلاف من شـباب الأمة عن الجهـاد في سـبيل الله ونصر دين الله، واعلاء كلمته في الأرض.. فلينظر هؤلاء كم من شاب فتنوه، وكم من داع خذلوه، وكم من مريد للجهاد في سبيل الله أقعدوه. قـال تعـالى: {قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يـأتون البـأس إلا قليلاً}. (فقاتل في سـبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحـرض المؤمـنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلاً..}.

من للجهاد اليوم في فلسطين وأفغانستان وأرتيريا وجنوب السودان؟؟

من للدعوة اليـوم في بلد تنتهك فيها حرمـات اللـه، وينفخ فيها الشـيطان، ويبيض فيها ويخرج الأفراخ والأعوان؟

وهل يتأتي هذا إلا بـأن تهب الأمة الإسـلامية من أقصـاها إلى أقصـاها وهي تقول لبيك اللهم لبيك للجهاد ونصرة الدين!!

وختاماً أقول لهؤلاء المثبطين القاعـدين: إذا رضـيتم لأنفسـكم القعـود عن نصرة الدين فلا تجمعوا جريمة أخرى في تثبيط القائمين والمجاهدين.

اللهم أني أحب كل داع إليـك، وكل بـاذل في سـبيلك وكل عامل لإعلاء كلمتك في الأرض في أي ساعة من ليل أو نهار، اللهم فاجعل لي نصيبا مع كل هـؤلاء لحـبي لهم، ودعـائي من أجلهم أن ينصـرهم الله ويؤيـدهم وأن يبارك في جهادهم.

{ربنا اغفر لنا ولإخواننا الــذين ســبقونا بالإيمــان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤف رحيم}.

الأصل السادس

وجوب تحديد الأهداف قبل شق الطريق

لا شك أن هم الدعاة إلى الله هو رفع الأمة إلى مسـتوى العمل بالإسـلام، والعيش تحت ظلال القرآن، وتطبيق شرع الله في أرضه، باختصـار عبـادة الله وحده لا شريك له.

ولا شك أن هذه مهمة شاقة وعسيرة وذلك للأسباب الآتية:

1- البون الشاسع بين واقع الأمة الإسـلامي الحـالي، وبين شـريعة الله عز وجل فقد تحـولت أمة الإسـلام الواحـدة إلى أمم شـتى، ودويلات متنـاثرة لكل دولة علم وسـلطان وإمـام، وقد تحـول الـولاء والـبراء من مـوالاة المسـلم للمسـلم إلى المـوالاة في المواطنة والدولـة، بحيث أصـبح من الجرائم التي يعاقب عليها القانون الانتقال من جزء من أرض الإسـلام إلى جزء آخر دون الإذن الرسمي الذي وضعت له شروط وقيـود وحـدود تجعل الكافر في كثير من الأحيان مقدماً على المسلم، وتجعل المواطن ولو كان كافراً عربيداً مقدماً في الحصول على المنافع من المسـلم التقي الصـالح إذا كان غير مواطن.

ثم إنه في كثير من دول الإسلام قد حـدث الفصـال التـام بين شـريعة الله ونظام الحياة، فلا سياسة ولا اقتصاد ولا اجتماع، ولا أخلاق تحكمها شـريعة القرآن وإنما شرائع الطواغيت والشيطان.

وهذا أمر يطول شرحه والمقصـود أن أول ما يجعل مهمة الـدعاة إلى الله عسـيرة في الـوقت الحاضر هو البـون الشاسع بين واقع النـاس، وبين المستوى الذي يدعو إليه كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

إن الوصـول إلى الـرأي الفقهي والحكم الشـرعي (فيما يمكن عمله لنصر الدين) ليس أمراً سـهلاً كما يتصـوره الكثـيرون؛ وذلك أن تعقيـدات الواقع الـذي نعيش فيـه، والعلم بالمصـالح والمفاسد وما يمكن تحقيقه وما لا يمكن، أمر ليس في إمكان كل مجتهد؛ وذلك أن كثيراً من العلمـاء وطلاب العلم ربما يكونـون على دراية ببعض علـوم الكتـاب والسـنة، ولكن كثـيراً منهم قد يكون في جهل كبير بواقع الناس، وحقيقة الأنظمة والقوانين التي تحكم هـذا الواقـع، ولا شك أن من يجهل الواقع لا يسـتطيع أن يهتـدي إلى الحكم الشرعي الصحيح، والأسلوب الأمثل في كيفية الدعوة والجهاد.

ألا تـرى أنه لو بعث فينا اليـوم بعض أعلام السـلف من الصـحابة والأئمة وعرضنا عليه كثيراً من مشكلاتنا فإنه لا يستطيع أن يفتي فيها إلا بأن يعلم واقعنا الـذي نعيشـه.. فمـاذا لو سـألنا مثلاً ابن عبـاس رضي الله عنهما أو أحد الأئمة الأربعة عن حكم الضمان الاجتماعي، وأعمال البنـوك الإسـلامية الحاليـة، والموقف الشـرعي من الحكـام المعاصـرين، والنظـرة الشـرعية لقوانين الإقامة والجنسية، والحدود السياسـية الـتي تفصل بين أبنـاء الأمة الإسـلامية، وما هو السـبيل الأمثل للتعامل اليـوم مع القضـية الفلسـطينية

والجهاد في أفغانستان.. إلى مئات بل آلاف المشكلات والقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تعترض مسيرتنا الإسلامية..

هل يستطيع أي علم من أعلام السلف، وأئمة الإسلام السابقين أن يفتنا في قضية، من هذه القضايا إلا بعد أن يعرف ويعلم ما هو الضمان الاجتماعي الذي نسأل عنه؟ وماذا تصنع البنوك الإسلامية اليوم؟ ومن هم الحكام المعاصرين وما موقفهم من شريعة الله ودين الإسلام؟ وما هي قوانين الإقامة والجنسية؟ وما معنى الحدود السياسية؟.. إلخ.

وهذا مثال فقط أضربه لنعلم أن مما يعقد الدعوة إلى الله في الوقت الحاضر أن الوصول إلى الحكم الشرعي الصحيح فيما يعترضنا من مشكلات ليس بالسهولة التي يظنها كثير من الناس لأن هذا يحتاج إلى علم بالكتاب والسنة أولاً، ثم دراسة وبصر بواقع الناس والمجتمعات وهذا لا يتيسر لكثير من طلاب العلم والعلماء. ونادراً ما نجد العالم العامل الفقيه الذي له بصر بدنيا الناس وواقعهم وله دراية وفهم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

3- وأما الأمر الثالث الذي يجعل نقل المسلمين إلى مستوى العمل بالإسلام صعباً شاقا. أن أعداء الإسلام المعاصرين قد استفادوا من تجارب المجرمين في كل العصور السالفة، وقد أصبح إجرام اليوم منظماً مقنناً مدروساً، ثم إنهم قد استفادوا بمعطيات العصر ووسائله الحديثة في حربهم للإسلام. قال تعالى: {وكذلك جعلنا في كل قرية أكبر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون}.

وقال تعالى أيضاً: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيرا} لقد كان الإجرام وحرب الإسلام قديماً بسيطاً وبدائياً إذا قيس بإجرام اليوم وطرق الصد عن سبيل الله المعاصرة، فإجرام الأمس لم يكن يعرف الحرب النفسية، ولا الإعلام القذر، ولا الرصد الدائم، والإحصاء المستمر لكل تحركات المؤمنين، وتخزين هذه المعلومات في بطن (الكمبيوتر) الحاسوب، ولا بتجنيد أجهزة كاملة في الدولة لا عمل لها إلا مكافحة النشاط الديني.. إلخ.

وهذه الأمور الثلاثة هي بعض المعوقات والمشكلات التي تجعل عمل الدعاة إلى الله ومحاولاتهم نقل الأمة الإسلامية من واقعها المعاصر إلى أفق الكتاب والسنة أمراً مستعصياً. ومن أجل مجابهة هذا الواقع والتغلب عليه يجب علينا اتباع الآتي:

1- الإيمان واليقين بأن الانتصار على هذا الواقع، ورفع الأمة إلى مستوى الكتاب والسنة يستحيل أن يكون إلا من خلال جهاد جماعي ينتظم جمهور أبناء الأمة الإسلامية حيث يكون كل فرد داعياً وكل داع له دور مخصوص وعمل معين يكمل به أعمال إخوانه الدعاة الآخرين. ولا شك أن من يظن أن ينتصر الإسلام، وتعلو كلمة الله بدعوات فردية متناثرة. كمن يظن أن يتغلب جيش للمسلمين لا خطة له ولا أمير ولا قائد وإنما جنود متفرقون يقاتلون كيفما اتفق ويقابلون جيشاً منظماً للعدو له قائد وخطة. فمن ظن أن مثل تلك الجموع المتفرقة التي لا قائد لها ولا نظام يمكن أن تتغلب

على عدو له قائد وخطة ونظام فهو مدخول في عقله، جاهل بسنن الله سبحانه وتعالى.

وللأسف أن بعض الدعاة إلى الله يجادلون في هذه السنن الكونية، ويحاربونها بكل سبيل، ويدعون طلاب العلم والدعاة إلى الدعوة الفردية ويقولون هذه طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم!! ويزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انتصر على قريش، ودانت له العرب، وغزا فارس والروم، ولم يكن له خطة ولا نظام، ولا أمة ولا جماعة!! ونجد بعض هؤلاء قد لا يمارس من أساليب الدعوة إلا مجرد نشر كتاب أو إلقاء درس.

ويظن أنه بذلك سيخرج اليهود من أرض الإسلام ويقيم شريعة الله في الأرض. ويحمي ديار الإسلام من المنافقين والفجار.

وهؤلاء إلى جانب محاربتهم لسنن الله الكونية ومجافاتهم لسنة رسول الله القولية والعملية، وجهلهم بالسيرة والتاريخ بل بالبديهيات فهم مع ذلك ثرثارون متشدقون. قد يعلمون في قرارة أنفسهم أن الدين لا ينصر إلا بجهاد للكفار والمنافقين وأن الجهاد في سبيل الله لا يكون إلا بخطة ونظام وإمارة، وقيادة ولكنهم يغطون قعودهم بتلك الثرثرة الفارغة كقولهم: إن الوقت غير مهيئ، وإن من السياسة ترك السياسة، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم مكث ثلاث عشرة سنة يدعو إلى التوحيد، وأن إيجاد الأمة يجب أن يكون قبل وجود القائد.. إلخ.

هذه الثرثرات الفارغة التي لا يراد من ورائها إلا القعود عن نصرة الدين، وتعليق أمل المسلمين بأسباب يعلم كل أحد أن الله لم يرتب عليها وحدها نصر الدين، ولا هزيمة الكافرين.

2- وأما الأمر الثاني الذي لابد وأن يسلكه الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى فهو معرفة الهدف الذي يريدون الوصول إليه من كل فعل يبذلونه، ثم السعي وفق هذه الأهداف المرجوة، واتخاذ الأسلوب المناسب. فمثلاً لو كان هدفي من دعوة أحد من الناس أن يهديه الله ويوفقه للإسلام، فيجب على ذلك أن أتخذ الأسباب الموصلة في العادة إلى ذلك كإلانة القول له، والاجتهاد في البيان والشرح، والنصح له كما قال تعالى: {فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى} وهذا الرجاء بحسب موسى لا بحسب الله سبحانه وتعالى، وذلك أن الله يعلم أن فرعون لا يهتدي، ولكنه أمر موسى عليه السلام بإلانة القول له، لأن لين القول هو الذي يمكن في العادة من أن يقرب الخصم، ويلين القلب، وأما لو كان هدفي من دعوة الشخص أن ألقمه الحجر فقط، وأقيم عليه الحجة وكفى فإنني سأتخذ الوسيلة المناسبة من البيان مع الزجر، والتوبيخ والتقريع، والذم الحامل على الإغاظة والإحناق وهكذا.. وانظر إلى سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم من قريش لقد كان همه صلى الله عليه وسلم جذبهم للإسلام، وإرشادهم إليه، والإبقاء على قوتهم والبعد عن إذلالهم؛ لما كان يرجوه صلى الله عليه وسلم من أن يكونوا عصب الدين، وقبيلة الإسلام، ورجال الحكم من بعده، ولذلك لم يتعمد قط إذلالهم ولا تنفيرهم من الدين، ولا تحطيم قوتهم، ومن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم لم يستعجل العذاب

لهم، والدعاء عليهم، وأخذه الفداء من أسـراهم في بـدر، واللين معهم في صـلح الحديبيـة، والعفو عنهم في الفتح، وتولية المناصب العليا لهم بمجـرد إسـلامهم كما فعل مع خالد وعمـرو بن العـاص وعكرمة بن جهـل.. إلخ وشرح هذا يطول والمهم هنا هو كشف جانباً من السياسة النبوية الحكيمة في الدعوة إلى الله والتي كانت نابعة من أهداف موضوعة ومقاصد بعيدة، وتخطيط وبصيرة، ولم تكن مجرد أعمـال متنـاثرة لا رابط لهـا، ولا فقه ولا فهم وراءهـا. وإنما كـانت سياسة مبنية على نظر في العـواقب، وتقـدير للأمور وتخطيط للمستقبل.. وقد شرحنا بحمد الله جانبـاً عظيمـاً من هـذه السياسة النبوية الكريمة في الـــدعوة إلى الله في كتابنا (فصـــول من السياسة الشرعية في الدعوة إلى الله).

والقصد هنا البيـان أن الـدعوة إلى الله يجب أن تكـون في إطـار خطة موضوعة وسياسة رشيدة، ونظر في العواقب والخواتيم، واختيار للأسلوب الأمثل الموصل للغرض والهدف.

والخلاصـة: يجب على الـدعاة إلى الله أن يعرفـوا أهـدافهم الـتي يريـدون الوصول إليها، وأن يدرسوا ذلك بعناية عظيم ثم يتخـذوا بعد ذلك الأسـلوب والطريق والوسيلة التي توصل إلى هذه الأهداف.

هذا بنظري أهم ما يجب على الـدعاة إلى الله اليـوم إدراكه من أجل جعل هذا الدين واقعاً في حيـاة الأمة الإسـلامية وهو باختصـار أنه يسـتحيل نصر الدين بغير الأسباب التي جعلها الله أسباب لنصر الدين كالجهاد في سـبيل الله بـالنفس والمـال، وقتـال الكفـار، وقمع المنـافقين، وبنـاء أمة الإسـلام بالتربية والتزكية والتعهد والرعايـــة، ثم بوجـــوب معرفة كل هـــدف يـــراد الوصول إليـه، ومن ثم اتخـاذ الأسـلوب والوسـيلة المناسـبة، وأما الـدعوة العشوائية بلا أهداف مرسومة، ولا خطة موضوعة، فإنما هو خبط عشـواء، وإلهـاء للنفـوس، وتغرير بالأمـاني الكاذبـة، وعيش في الأحلام، ومخالفة لسنن الله.

الأصل السابع

القرار في جماعة الدعوة للإجماع

ثم للأكثرية وللسواد الأعظم

قدمنا في الفصول السابقة من أصول العمل الجماعي أن أهداف الإسـلام النهائية بعيـدة عن التحقيق بـالنظر إلى واقعنا المعاصـر. فـأين نحن اليـوم من قوله تعالى: {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله}!!.

فالخضوع اليوم يكاد أن يكون في الأرض كلها لغير الله سبحانه وتعـالى إلا مواقع قليلـة.. ولا شك أن تحقيق هـذه الغاية النهائية للـدين لا يتحقق إلا بجهـاد إسـلامي يسع الأرض كلها ويكـون بحجم التحـديات الـتي تواجه هـذا الجهـاد.. ومن أجل ذلك قلنا أنه لا جهـاداً حقيقيـاً يغـير الواقع إلا الجهـاد الجمـاعي والعمل المتواصل الـذي يكمل فيه اللاحق ما بـدأ فيه السـابق.. ويكون فيه الآخرون على درب الأولين.

وذكرنا أيضاً أن لا جماعة إلا بطاعة كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهذا من بديهيات الأمور على كل حال، وذكرنا أيضاً أن الأمر والقرار الشرعي لابد وأن يكون صادراً عن علم بالشريعة، ومعرفة بالواقع المعاصر.. وأن من علم الأحكام الشرعية ولم يعلم الواقع أنزل الآيات والأحاديث على غير منازلها ووضعها في غير مواضعها، ومن علم الواقع ولم يعلم الشريعة كان كمن علم الداء ولم يعلم الدواء فإنه يداوي بغير طب، وقلنا كذلك إن القرار والأمر يجب أن يكون صادراً وفق قواعد الاجتهاد الشرعي والمعرفة بالمصالح والمفاسد. وهذه قضية أشرنا إليها إشارة، وتفصيلها في غير هذه الرسالة.

واليوم نأتي إلى قضية هامة من قضايا العمل الجماعي وهي من يملك القرار في جماعة الدعوة؟

والجواب أننا بحمد الله نظرنا طويلاً في هذا الأمر وقد ألفت فيه رسالة منذ سبعة عشر عاماً تقريباً بعنوان (الشورى في ظل نظام الحكم الإسلامي) وكان فيها فصل خاص بالفروق الأساسية بين جماعة الإسلام وجماعة الدعوة. وقد وصلنا منذ ذلك الوقت، وزادتنا الأيام والأحداث علماً - إلى الحقائق التالية:

1- أنه لم يوجد ولا يوجد الرجل الذي أحاط علماً بكل أحكام الدين، وبواقع أمة الإسلام، ويستطيع أن يصف الدواء لكل علة، والقرار الصائب في كل مشكلة، وإن كان يوجد هذا الرجل فلابد أن يكون رسولاً لا ينطق عن الهوى، ويوحى إليه في كل أمر. ومع أن هذا لا ينطبق إلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط فإن الله سبحانه وتعالى أمره بالرجوع لأصحابه ومشاورتهم فقال له: {فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك} الآية..

والآيات هذه نزلت بعد أحد، وكان من شأن الشورى في هذه الغزوة أحد أسباب الهزيمة، ومع ذلك أمره سبحانه وتعالى أن يشاور أصحابه.. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه في كل وقائع التطبيق تقريباً، كأخذ الفدية في بدر، ومصالحة غطفان في الخندق، وتأمير الأمراء، ونحو ذلك من مصالح المسلمين العامة، بل ومن أمور الرسول الخاصة كحادث الإفك.. وكذلك كان الشأن في خلفائه الراشدين من بعده.

2- لا يجوز للإمام أن يخالف رأي جمهور الأمة:

والمطلع في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين يجد أنه ليست هناك واقعة واحدة خالف فيها رسول الله ولا خلفاؤه الراشدون ما يشير به جمهور الأمة، بل صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبي بكر وعمر: [لو اجتمعتما على رأي ما خالفتكما] وقد رجع رسول الله إلى رأي جمهور أصحابه وإن كان على خلاف رأيه في وقائع كثيرة منها الخروج إلى الكفار في أحد، والبقاء على حرب الكفار في الطائف، والعدول عن مصالحة غطفان في الخندق، علماً أن الرسول كان قد أبرم الصلح وكتب العهد ولكنه لم يوقع عليه بعد.. وكذلك الحال

مع خلفائه الراشــدين ولا يعــرف حالة واحــدة انفــرد الإمــام فيها بــالرأي وخالفه جمهور الناس وأمر الناس بعد ذلك بطاعته.

والنصوص القرآنية والحديثية قاضية بذلك. فقوله تعالى: {وأمرهم شــورى بينهم} ظـاهر في أنه لا يجــوز للإمــام أن يقطع برأيه دون المســلمين، ولا يجوز أن يلـزمهم برأيه الـذي يخالفونه ويعارضـونه، وكـذلك قـول الرسـول صلى الله عليه وسلم لكل أمير يوليه سرية أو جيشـاً: [وإن أنت اسـتنزلت أهل حصن فـأرادوك أن تـنزلهم على حكم الله وحكم رسـوله فلا تـنزلهم على حكم الله وحكم رسـوله لأنك لا تـدري أتصـيب فيهم حكم الله وحكم رســوله أم لا ولكن أنــزلهم على حكمك وحكم أصــحابك] (رواه مســلم). فقوله صلى الله عليه وسـلم: [ولكن أنـزلهم على حكمك وحكم أصـحابك] ظــاهر أنه لابد من اجتمــاع الآراء في ذلك أو اتفــاق معظمهما على الأقل حـتى يصـدق فيه قـول رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: [ولكن على حكمك وحكم أصحابك]..

وهـذا النص يلح مسـتنداً أن الجماعة الصـغرى يجب أن تكـون في هـديها واجتهادها على نمط الجماعة الكــبرى. وعلى كل حــال إذا كــان هــذا هو المســلك في الجماعة العامة فإنه في الجماعة الخاصة أولى؛ لأن الإلـتزام فيها اختياري وتلك الإلتزام بها جبرياً مفروضاً.

3- المصلحة الشرعية تقتضي إلزامية الشورى:

ولا شك أن المصـلحة الشــرعية تقتضي إلزامية الشــورى ووجــوب العمل بــرأي الأغلبيــة؛ لأن هــذا أولاً أدعى للبعد عن الاســتبداد وسد ذرائع اتبــاع الهــوى والمنــافع الخاصــة، وجعل المســؤولية جماعيــة، وتحميل الأمــة، والجماعة نتيجة قرارها، وسد باب الطعن في الأمراء، وتحقـير اجتهـادهم.. وهو كذلك من أعظم أسباب لمِّ الشمل ووحـدة الكلمـة، وعـدم الاعـتراض على الأمر لأنه يكون صادراً بجمهور المستشارين، ورضا الأمة والجماعــة.. ثم إن الإمــام العــام أو الأمــير الخــاص هو في النهاية فـرد من الأفـراد قد يكون له من إخوانه ورعيته أكفاؤه وأمثاله، بل قد يكون هنــاك من هو أكفأ منه، ولكن الظروف حالت دون جعله في الصدارة. فلمـاذا إذن يصـبح رأيه هو الفيصل الــذي لا رأي بعــده؟ ولمــاذا إذا أجمعت الأمة أو اتفق جمهــور المهتــدين على رأي كــان له أن يخــالفهم ويمضي أمــره، وتلــزم الأمة أو الجماعة بــه؟ إن هـذا يـؤدي في النهاية إلى ما ذكرنا من الفســاد والفرقة والخلاف..

ولا شك أنه لا يجوز في هذا الصدد أن نستدل بقوله تعالى {وإن تطع أكـثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله} وقوله تعالى {وما أكثر النــاس ولو حرصت بمؤمــنين} ونحو ذلك من الآيــات لأنه اســتدلال الجهلاء الســخفاء الذين ينزلون القرآن في غير منازله.. فإن هذه الآيات تبين أن أكثر النــاس يبقى على عناده وكفـره ولا يتبع الحـق، ويـدخل في الإسـلام. وأما ما نحن بصـدده فهو أن نسـبة الصـواب مع جمهـور المهتـدين أكـثر منه مع الواحد والاثنين، ولا يمنع أن يكـون أحد المهتـدين أحيانا معه الحق دون جمهـورهم ولكن هذا شذوذ وندرة. فلا شك أن عامة المسائل التي اتفق عليها جمهور الصحابة مثلاً كان الحق معهم دون من شذ منهم، ولا يمنع أن يكــون الحق

مع القليل أحيانـاً ولكنه كما قلنا شـذوذ عن القاعـدة. والشـاذ كما يقـال لا حكم لـه. ومعلـوم أن الصـحابة قد أخـذوا في جمع القـرآن بقـول الكـثرة والتواتر، وتركوا نقل الواحد والاثنين وهذا منهم عمل برأي الأغلبية.

* والخلاصة أن المصــلحة الشــرعية بكل أبعادها تقتضي اليــوم أن يكــون القـرار النهـائي لإجمـاع الأمـة، ثم جمهورها ولا يجـوز بتاتـاً -قطعـاً لـدابر الفرقة- أن يكون القرار النهائي للفرد مهما كـان هـذا الفـرد علمـاً وورعـاً ومعرفة بالواقع؛ لأنه لا يوجد المعصوم، وبالتالي فالاجتهاد الجمـاعي دائمـاً أقوى من الاجتهاد الفردي، ونسبة الحق مع الجماعة أكبر منه مع الواحد.

ثم إن المؤسسات أبقى من الأفراد فعمر الأفراد محدد وقليل، وعمر الأمم والجماعات أطـول من هـذا بكثـير، ودوام الأمة والجماعة هو بـدوام الألفة والمحبة، ولا ألفة ولا محبة إلا في ظل القرار الجماعي الذي يشعر الجميع أنهم قد شــاركوا وأســهموا فيــه، وأن رأي الأغلبية هو المقــدم في النهاية على رأي الفرد والأقلية.

وهنا نأتي إلى السؤال المعروف: ومن له الحق في الشورى؟

هل الأمة كلهـا؟ فهـذا متعـذر أو مسـتحيل، وفي الجماعـة: هل هم الأفـراد جميعاً؟ وهذا كذلك صعب أو متعذر.

والجواب أنه بالنظر إلى الشريعة المطهرة يتضح الآتي:

1- أن الأمور الشـورية هي في مجـالات التطـبيق فقط وما يسـميه علمـاء الأصــول بتحقيق المنــاط فأصــول الأحكــام ليست محلاً للنظر والاجتهــاد كحرمة الخمر والزنا، ووجوب الصلاة والصوم والزكاة والحج.

2- أن الشريعة لم تحـدد من الـذين يستشـارون في الأمـر؟ وكم عـددهم؟ وكيــف؟ وإنما تــركت ذلك للاجتهــاد. وقد رأينا أن الرســول كــان يستشــير خلاصة أصحابه كالصديق والفاروق ومن له اختصاص بالأمر المشـاور فيـه. وكذلك كان الصديق رضي الله عنه، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشــاور كبــار المهــاجرين أولاً، ثم كبــار الأنصــار، ثم مشــيخة قــريش على الترتيب.. وكان إذا اتفق فريق منهم على شيء أمضاه، وكان قراء القــرآن وأهل العلم به هم خاصته ومستشاروه. ونخلص من ذلك أن سن القــوانين الــتي تحقق هــذا الهــدف بالصــورة المثلى هو المطلــوب، وأن الكيفيــات متروكة للاجتهاد والمهم هو حصول النتـائج وأن تكـون الشـورى وأن يكـون الالتزام بالحق وأن يكون الرأي في النهاية للأمـة؛ لأنها هي الـتي سـتتحمل آثار القرار، ولا شك أن حال جماعة الدعوة لا تختلف كثيراً عن ذلك.

(والمسلمون عند شروطهم) كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولا شك أنه كلما اتسـعت دائـرة الشـورى، وكـان الـرأي لأهل الاختصـاص، وتحمل الجميع تبعة القرار كلما كان هذا أدعى إلى الألفة والوئام.

والخلاصة أن القـرار في جماعـات الـدعوة يجب أن يكـون قـراراً جماعيـاً مدروساً، قد انبنى على فهم دقيق بالواقع المعاش، وعلم عميق بالشــريعة المطهرة، ونظر في العواقب وتقدير للمصالح والمفاسد.

ولا شك أن القــرار الــذي صــدر محققــاً ذلك ســيكون قــراراً في مكانــه، وســيتحمل الجميع نتائجه بصــدر رحب؛ لأنه صــدر منهم وشــاركوا فيــه، وبالتالي يجب أن يتحملوا نتائجه.

****

****

****